التراث الأندلسي
بين الإحراق والضياع *

د. محمد يوسف إبراهيم بنات **

* تاريخ التسليم: ١٩/ ٩/ ٢٠١٢م، تاريخ القبول: ١٥/ ١/ ٢٠١٤م.
** دائرة اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة القدس/ فلسطين.

ملخص:

تهدف هذه المقالة إلى التعرف إلى قضيَّة مهمَّة أشار إليها العلماء القدماء والباحثون المحدثون، وهي ظاهرة إحراق كتب التُّراث الأندلسي وضياعها، كما عالجت المقالة موضوعها باعتباره ظاهرة متعددة الأبعاد، ولم تركز عليها من بعد واحد. وتحقيقاً لذلك تناولت الحديث عن مكانة الكتاب عند أهل الأندلس، وأثر ذلك على انتشار الكتب وشيوعها في تلك البلاد. وقد تركَّز الحديث عن إحراق الكتب وضياعها على محورين: تناول الأوّل الإشارات الواردة في كتب التراث الدّالّة على ضخامة النتاج الفكري في العصر الأندلسي، وأسباب ضياع كتب التُّراث، واقتصر المحور الثاني للحديث عن إحراق الكتب والمخطوطات في الأندلس. وقد كشفت المقالة نتائج عدَّة من أهمها: ضخامة النتاج الفكري في العصر الأندلسي على امتداد ثمانية قرون من خلال الحقائق العلمية التي استخلصت من مختلف المصادر الأدبية والتاريخيَّة.

Incineration and loss of Andalusian heritage books

Abstract:

This paper aims to explore a significant issue highlighted by both ancient and modern scholars. It is the phenomenon of incineration and loss of Andalusian heritage books. It also discusses this phenomenon from different perspectives rather than from one perspective. In order to fulfill this end, the paper discusses the place and impact the Andalusians attach to the book and the extent of the spreading of books in this country. This study focused on two aspects related to the incineration and loss of books: The first is mentioning the references which allude to those books and the bulkiness of the intellectual production of the Andalusian period in addition to the causes of the loss of those books. The second is discussing the incineration of books and manuscripts in Andalusia. The paper has presented several results, and one of the most important is the bulkiness of intellectual legacy produced during the Andualisian era over a period of eight centuries. This is based on scientific facts taken from different literature and historical resources.

لعلَّ من اللَّافت للنَّظر تلك العبارة الفضفاضة التي اختارها الدكتور يوسف زيدان لأن تكون عنواناً لكتابه: "التُّراث المجهول" والذي أكَّد في مقدِّمته العامَّة على أنَّ تراثنا العربيِّ ما زال مجهولاً من حيث واقعه الإحصائي، فإذا جاز لنا أن نجري موازنة بسيطة بين النُّصوص المحقَّقة، وبين النصوص التي مازالت مخطوطة، أو تلك التي كتب عليها الضَّياع مع الزَّمن، فسيظهر لنا أنَّ نسبة المنشور من ذلك التُّراث لا تزيد عن خمسة بالمائة من مجموع التُّراث أو تقلُّ، ولهذا فإنَّ القسم الأكبر من تراثنا ما زال مجهولاً؛ لأنَّه حبيس في خزائن المخطوطات في بلدان المشرق والمغرب [١].

وإنّ المتتبِّع لمسيرة التُّراث العربيّ على امتداد ما أنتجته الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة من نتاج حضاريٍّ يجد أنَّ هناك ظاهرة لافتة للنَّظر فيما يتعلَّق بضياع جزء من هذا النِّتاج، وتتمثَّل تلك الظَّاهرة في إقدام بعض العلماء على إحراق كتبهم وإتلافها بشكل متعمَّد على الرَّغم من حُبِّهم الشَّديد لها، إمَّا لأنَّهم لم ينالوا التَّقدير والاحترام من قبل عامة الناس ومثقفي العصر، وإمَّا لأنَّهم أصحاب فلسفات تتعارض في مفهومها مع الفكر السَّائد آنذاك، وثمَّة أسباب أخرى تتعلَّق بعوامل شخصيَّة، إذ أقدم أصحاب تلك الكتب على إتلافها بعد أن زهدوا بالدنيا، وانقطعوا للنُّسك والعبادة. فهذا أبو حيَّان التَّوحيديّ [٢] يحرق كتبه جميعها؛ لأنَّه ظنَّ أنَّ النَّاس غير قادرين على فهم ما يكتبه.

وهناك أسباب أخرى ساهمت في ضياع القسم الأكبر من النِّتاج الحضاريّ، وبخاصَّة الأندلسيّ منه، فمثلاً قُدمِّت كثير من الكتب طعاماً للنَّار؛ وذلك لأنَّ ما ورد فيها يتعارض مع العقيدة الدينية الإسلاميّة حسب استنتاج بعض الفقهاء الذين ألَّبوا فئات الشعب ضد بعض العلماء، ونتيجة لهذا انصاع السَّلاطين والأمراء لمطالب الفقهاء والعامة على نحو ما فعل المنصور بن أبي عامر بحقِّ كتب الفلسفة والتَّنجيم التي وجدت في مكتبة الحكم المستنصر، فجمعها وأحرق بعضها على الملأ [٣].

وقد ساهم الحقد الأعمى والتَّعصّب الدّينيّ في ضياع كثير من الكتب العربية التي أحرقت بهدف طمس تراث الأمة وحضارتها، بعدما غربت شمس الإسلام في الأندلس، وما زالت الذَّاكرة تحتفظ بتلك الحادثة الأليمة التي أقدم عليها الكاردينال ثيسنيروس حين أضرم النَّار بكثير من المخطوطات العربيَّة في باب الرَّملة في مدينة غرناطة. وثمة أسباب غير مقصودة ساهمت بشكل أو بآخر في ضياع الكتب وفقدانها نتجت عن ظروف طبيعية غير متعمَّدة وغير مقصودة، على نحو ما حدث لكتب عبد الرحمن بن موسى الهَوَّاريّ [٤] التي سقطت في البحر أثناء نقلها، فأبدى أسفاً وحزناً شديداً على فقدها بعد أن أمضى في جمعها سنين عديدة [٥].

هذا وقد حظي الكتاب بمنزلة عظيمة ومكانة مرموقة لدى الأندلسيين، ونال قسطا كبيراً من العناية والاهتمام نسخاً وضبطاً وتجليداً، فأبدوا اهتماماً ملحوظاً بنسخ الكتب بشكل متقن، وكتابتها بأحسن الخطوط وأجملها، وحرصوا على تجليدها وزخرفتها بأفخر أنواع التَّجاليد بغية المحافظة عليها وصونها من التَّلف بتقادم الزَّمن.

ولا عجب أن نرى إقبالاً غير مسبوق لدى أبناء الأندلس على اقتناء الكتب وخاصة النَّادر منها. وكثيراً ما كان أصحاب المال والثَّراء يدفعون أموالاً طائلة من أجل الحصول على نسخة مكتوبة بخط حسن بماء الذَّهب، ومن هنا أظهر بعضهم فخراً ومباهاة بأنَّ لديه نسخة من كتاب نادر مكتوب بخطٍّ جميل، وما هذا الكلام إلا تثبيت لما ذكره المَقَّريّ حين قال: "**إنَّ الرَّئيْسَ منْهُم الَّذي لَا تَكُونُ عنْدَهُ مَعْرفَةٌ يَحْتَفلُ في أَنْ تَكُونَ ببَيْته خزَانَةُ كُتُب وَيَنْتَخبُ فيْهَا لَيْسَ إلَّا لأَنْ يُقَال لَيْسَ هُوَ عنْدَ أَحَد غَيْره، والكتَابُ الَّذي هو بخَطِّ فُلانٍ قَدْ حَصَلَهُ وَظَفرَ به**" (٦).

ويطلعنا المقَّريُّ في موضع آخر على أنَّ الاهتمام بجمع الكتب لم يكن قاصراً على ذوي المال والسُّلطان والمتعلِّمين منهم، بل امتدَّ ليشمل جميع فئات المجتمع الأندلسي حتَّى غير المتعلِّمين، إذ كانوا حريصين على أن تكون في بيوتهم زاوية خاصَّة للكتب، ليس حبَّاً في قراءتها فحسب، وإنَّما كان ذلك مجرَّد هواية حرص أصحابها على ضرورة أن يكون في بيوتهم ركن خاصٌّ بالكتب، وهذا ما يمكن اعتباره نوعاً من الكماليَّات التي تضفي على البيوت رونقاً وجمالاً حتى يتباهى صاحبه أمام الناس بمكتبته النَّفيسة، ولهذا فقد غدت قرطبة أكثر بلاد الله كتباً (٧).

وقد شهدت المدن الأندلسيَّة حالة من التَّنافس في العناية بالكتب وجمعها وإنشاء المكتبات العامَّة، ويطالعنا في هذا الباب النَّموذج الأمثل لهذه المنافسة في الحالة التي كانت قائمة بين مدينتي قُرطبة وإشبيلية، والمناظرة الطريفة التي دارت بين ابن زهر الإشبيلي (٨) وابن رشد (٩) عندما كانا في حضرة السلطان المنصور يعقوب (١٠) تؤكِّد ذلك، إذ أخذ كلُّ واحد منهما يشيد بفضل مدينته ومفاخرها على الآخر، فذكر ابن رشد أنه إذا مات أحد علماء إشبيلية وأريد بيع كتبه فإنَّها كانت تُحْمَلُ إلى قرطبة لتُبَاعَ فيها، وإذا مات مُطْرِبٌ بقرطبة، وأريد بيع آلات طربه، فإنَّها كانت تُبَاعُ في إشبيلية (١١). فهذه المناظرة تضعنا في صورة تلك الأجواء التنافسية التي تشير إلى الدرجة الرفيعة والمستوى الرَّاقي الذي كانت تحظى به عاصمة الخلافة آنذاك.

ثمَّة عامل آخر ساهم في دفع عجلة الحركة العلميَّة وتأليف الكتب واستنساخها ويتمثل في احتضان الخلفاء والسَّلاطين للعلماء والأدباء، فكانوا يعملون على تحفيزهم

وتشجيعهم على التأليف في جميع فنون العلم. ولهذا كانت المدن الأندلسيَّة في عهد أمراء الأندلس عامرة بالعلماء، ولا عجب والحالة هذه أن يكون الأمراء والسَّلاطين أوَّل مَنْ سعى إلى إنشاء المكتبات العامة وخزائن الكتب الخاصَّة، ولعل الحكم المستنصر قدوتهم في ذلك إذ كان حريصاً على جمع الكتب من مختلف الأقطار، فقد ملأ بلاد الأندلس بجميع أنواع الكتب التي تضمّ مختلف ألوان المعرفة، وقد أكَّد على ذلك صاحب كتاب "طبقات الأمم" بقوله: "وجمع فيها في بقيَّة أيام أبيه ثمَّ في مدَّة ملكه من بعده ما كان يضاهي ما جمعته ملوك بني العبَّاس في الأزمان الطَّويلة" (١٢) . وليس بمستغرب أننا نجده ينفق أموالاً طائلة في سبيل الحصول على نُسْخَة من كتاب فريد، وقد بلغ حبّ جمع الكتب لديه مبلغه حتَّى أنَّه كان يشتري الكتاب من مؤلِّفه قبل أن يفرغ من كتابته ويكمله، فقد ذُكر أنَّه أرسل إلى أبي الفرج الأصفهانيّ ألف دينار ذهباً طالباً منه أن يُزوِّده بنسخة من كتابه "الأغاني" قبل أن يظهر ذلك الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحد منهم (١٣) .

وقد سار أمراء الطَّوائف وملوكها على نهج الحكم المستنصر في إنشاء المكتبات وتنافسوا في جمع الكتب وتشجيع العلماء على التأليف ووضع المصنَّفات، فكان مجاهد العامريّ رجلاً طُلعة ذا ثقافة موسوعية محبَّاً لجمع الكتب واستجلابها فجمع من الكتب والدفاتر ما لا يحصى له عدد في مختلف العلوم، وقام بوضعها في خزائن كثيرة، وبهذا غدا مجاهد أديب ملوك عصره؛ لأنَّه كان بارعاً في علوم اللُّغة، متمكِّناً من علوم القرآن، فأمَّ قصره العلماء من الشَّرق والغرب (١٤) ، ومثله المُظَفَّر بن الأفطس ملك بطليوس الذي كان أكثر الأمراء ثقافة وعلماً، مشهوراً بشغفه لجمع الكتب إذ كانت لديه خزانة كتب ضخمة من مختلف العلوم، وقد أعانته تلك المكتبة على تأليف كتابه المَوْسوعيّ المُسمَّى بـ"المُظَفَّريّات" (١٥) ، وكان المؤتمن بن هود ملك سرقسطة رجلاً عالماً مطالعاً للكتب، حريصاً على جمعها والعناية بها، وقد جمع من ذخائر العلوم ما لم يجتمع مثلها عند ملك (١٦) . وقد سار على نهجهم بنو ذو النون ملوك طُلَيْطِلَة الذين اهتموا بالكتب اهتماماً كبيراً وحرصوا على استحضارها بطرق شتَّى، وقد سجلت لنا المصادر الأدبية تلك الحادثة التي أقدم من خلالها المأمون بن ذي النُّون على انتهاب مكتبة الأروشي (١٧) وصادر منها الشَّيء الكثير وأخذها إلى مكتبة قصره (١٨) .

ومن بين الأسباب التي زادت من اهتمام الأندلسيين وحرصهم على اقتناء الكتب والعناية بها انتشار الوراقة، فقد كانت صناعة الورق مزدهرة بينهم، وهذا ما جعل الكتب في متناول الجميع، وأدّى بالتَّالي إلى زيادة التَّأليف، ولهذا فقد تسارع الناس إلى استنساخ الكتب نتيجة لتوافر الورق الجيد الذي اشتهرت به بعض المدن الأندلسية وبخاصَّة شاطبة التي برع أهلها في صناعة الورق، وهذا ما أشار إليه ياقوت الحموي إذ ذكر أنَّها كانت تمتاز

بصناعة وإنتاج الورق الجيد الذي يُصدَّر إلى سائر بلاد الأندلس وتعدَّاها ليصل إلى بلاد الشَّرق، وقد أكَّد الإدريسي هذا الخبر في كتابه "نزهة المشتاق" (١٩). وقد ذكر لنا المقدسيِّ أنَّ الأندلس شهدت حالة من التَّقدّم في صناعة الورق وإنتاجه فانتهى إلى القول: "وَأَهْلُ الأَنْدَلُسِ أَحْذَقُ النَّاسِ فِي الوِرَاقَةِ" (٢٠).

ومع شديد الأسف فقد تعرض كثير من التَّراث الأندلسيّ للفقد والضياع، وآل كثير منه إلى مصير مجهول، ولعلَّنا نجد في الإشارات المبثوثة التي عثرنا عليها في المصادر التَّاريخيَّة والأدبيَّة ما يسعفنا على وضع تصور منطقي بعيداً عن وضع إحصائية ولو تقريبيَّة للحجم المفقود من ذلك التراث الذي سقط من يد الزَّمن نتيجة الإهمال والجهل والتَّعصُّب الأعمى، يضاف إلى ذلك الحقد الذي كان السَّبب الرَّئيس في تدمير الكتب وإحراقها.

وكان الخلاف حول عدد المكتبات التي كانت موجودة في الأندلس آنذاك عقبة أخرى تضاف إلى العقبات التي تحول دون المساعدة في وضع رقم إحصائي دقيق لحجم التُّراث الأندلسي، ولم تسعفنا مصادر التَّاريخ والأدب على الاهتداء إلى نصوص صريحة نحصر من خلالها عدد المكتبات، غير أنَّ الإشارات الكثيرة التي استقيناها من النُّصوص المختلفة تثبت أنَّ عدد المكتبات كان كبيراً بشكل يفوق الحصر. وممَّا يعزز هذا الرأي إقبال الأمراء والملوك على التنافس الشديد في جمع الكتب واستقطاب العلماء، وكان لهذا التنافس انعكاسه المثمر على الحركة العلميَّة في مختلف المدن الأندلسيَّة، وهذا ما زاد في إقبال أبناء المجتمع أطفالاً ورجالاً ونساء على القراءة بشغف، ولعلَّنا لا نبالغ إذا قلنا إننا أمام شعب واعٍ مثقَّف أولع الغالبية العظمى من أبنائه بحبِّ القراءة والمطالعة. وهذا يقودنا إلى الحديث عن اختلاف تقديرات الباحثين لعدد المكتبات التي كانت موجودة في الأندلس وبخاصَّة في قرطبة التي تعدُّ من أكثر المدن من حيث عدد المكتبات.

كنَّا قد ذكرنا في نقلنا عن المقَّري في موضع سابق أنَّ قرطبة كانت من أكثر بلاد الله كتباً، ففي هذه العبارة ما يشير إلى أنَّ هذه المدينة قد شهدت نهضة علميَّة غير مسبوقة، وبخاصَّة في عهد بني أميَّة الذين كانوا سبَّاقين إلى تشجيع النَّاس على القراءة وطلب العلم.

وقد أدَّت المساجد في عهدهم رسالة سامية في تقديم العلم لطالبيه قبل أن يشرعوا في إنشاء المدارس، إذ أمَّت ساحات المساجد جموع غفيرة من الطَّلبة، وبما أنَّ المسجد يعدُّ المكان الأوَّل لتلقي العلم، فإنَّه من الضَّروريّ أن يشتمل على مكتبة قيِّمة ينتفع بها الطَّلبة، وفي ذلك يقول المقَّريّ: "ليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المسجد" (٢١). فهذا يقتضي وجود كتب يستعين بها الطلبة في دراسة ما تعلَّموه وتنمية ثقافتهم. وقد أمدَّنا المقَّريُّ بنصٍ آخر ذكر فيه أنَّ عدد مساجد قرطبة في عهد

عبد الرحمن الدَّاخل بلغ أربعمائة وتسعين مسجداً، في حين وصل عدد المساجد فيها في عهد المنصور بن أبي عامرٍ إلى ألفٍ وستِّمائة مسجد [٢٢].

وقد تباينت وجهات نظر الباحثين حول تقدير عدد المكتبات العامة في الأندلس. فالمستشرقة الألمانيَّة (Sigrid Hunke) ذهبت إلى أنَّه كان يوجد في قرطبة وحدها عشرون مكتبة عامَّة فيها عشرات الآلاف من الكتب [٢٣]. أمّا المؤرِّخ (Prescott) فقدَّر عدد المكتبات العامة بنحو سبعين [٢٤]، ومن الباحثين المحدثين الذين تبعوا (Prescott) في هذا التقدير محمد عجاج الخطيب فقد ذكر أنَّ عددها في عصر الخلافة قد وصل إلى سبعين ماعدا المكتبات الخاصَّة [٢٥]، وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ المقصود بالمكتبة العامَّة، هي المكتبة الملحقة بالمسجد، أمَّا مفهوم المكتبة العامَّة كما نعرفها اليوم فلم تكن قائمة. وقد أنكر ريبيرا أنَّه كان في إسبانيا سبعون مكتبة عامَّة فقط، مع تأكيده على أنَّ المكتبات كانت أكثر من ذلك بكثير، وأنَّ عددها يماثل عدد المساجد التي كانت تزخر مكتباتها بالكتب غالية الأثمان التي تبَّرع بها المحسنون، ليستفيد منها الطلبة [٢٦].

وتجدر الإشارة إلى أنَّ ريبيرا في مقالته عن المكتبات وهواة جمع الكتب في الأندلس ذكر نماذج وأمثلة حيَّة استخرجها من مختلف المصادر التاريخيَّة والأدبيَّة، ضمَّت إحدى وثمانين مكتبة بين خاصَّة وعامَّة في مختلف المدن الأندلسيَّة، مع العلم أنَّ ريبيرا قد أعاد ذكر ما تضمَّنته المقالة في كتابه الموسوم بـ"التربية الإسلامية في الأندلس" [٢٧]، وبسط المسألة في عناوين فرعيَّة استعرض من خلالها خارطة المكتبات الموزَّعة في مختلف المدن الأندلسيَّة. وبعد مراجعة هذا الفصل من الكتاب نجد أنَّ الغالبية العظمى من المكتبات تتركز في المقام الأوَّل في قرطبة، إذ عدَّد واحدة وعشرين منها، ويأتي في المقام الثاني مدينة بلنسية فذكر أسماء سبع عشرة مكتبة، وقد جاءت كل من طليطلة وغرناطة في المركز الثالث، فذكر في كلٍّ واحدة منهما تسع مكتبات، أمَّا إشبيلية ومالقة فذكر لأسماء خمس من المكتبات الموجودة فيهما، ولعلَّ من المستغرب حقاً قلَّة أعداد المكتبات في شرق الأندلس، وبخاصَّة مدينتي شاطبة ومرسية إذ سجَّل لنا أسماء سبع من مكتباتهما، مع العلم أنَّ شاطبة كانت تشتهر بإنتاج الورق، وهذا يقتضي أن تكون عامرة بالمكتبات.

ويرى الباحث أنَّ هذا العدد – أعني المكتبات الواحدة والثمانين– قليل جدّاً بالنِّسبة للكثرة العدديَّة للمكتبات التي كانت موجودة في الأندلس. والدليل على ذلك أنَّ عدد المكتبات الخاصَّة بالأفراد في مختلف المدن الأندلسيَّة يفوق الحصر، والذي جعلنا نركن ونطمئن إلى هذا القول العبارة التي كنا قد ذكرناها للمقَّريّ سابقاً، والتي أكَّد فيها على أنَّ أحداً من أبناء الأندلس لا يستغني عن تأسيس مكتبة خاصَّة في بيته، حتّى وإن لم يكن على

مستوى عالٍ من المعرفة، فما بالك بالنِّسبة للمتعلِّمين من أبنائها وعلمائها الذين حرصوا كلَّ الحرص على امتلاك مكتبات خاصَّة تعينهم على التأليف، مع العلم أنَّ مكتبات الأمراء كانت مفتوحة أمام نفر من كبار العلماء والأدباء. يضاف إلى ذلك حبّ أهل الأندلس لجمع الكتب وبخاصَّة النَّفيس منها، والقصَّة التي وقعت بين جمَّاع الكتب المعروف بالحضرميَّ وأحد رجال قرطبة في سوق بيع الكتب تقدِّم لنا دليلاً آخر على أنَّ عدد المكتبات الخاصَّة كان في ازدياد مستمرٍّ.

ولا ننسى أنَّه كان لتقدّم الحياة العلميَّة، وانتشار التعليم أثره الكبير في ازدياد أعداد المكتبات، فقد أنشئت الكتاتيب التي تقدِّم التَّعليم المجَّاني في مدينة قرطبة، وقد ذكرت بعض المراجع التاريخيَّة الحديثة أنَّه تمَّ إنشاء المدارس منذ عهد تأسيس الإمارة مع أنَّ المقَّريّ نفى ذلك كما ذكرنا. وفي هذا الصَّدد من الأهميَّة بمكان الإشارة إلى أنَّ المدارس قد أنشئت في فترة متأخّرة جداً، ويرجع الفضل في إنشاء أوّل مدرسة – هناك– إلى الحاجب رضوان النصريّ [٢٨]، يقول صاحب "الإحاطة": " فقد أحدث المدرسة بغرناطة، ولم تكن بها بعد، وسبَّب لها الفوائد، ووقف عليها الرِّباع المُغلَّة، وانفرد بمنقبها، فجاءت نسيجة وحدها بهجة ورصداً وظرفاً وفخامة، وكان سنة ستين وسبعمائة " [٢٩]. هذا وقد تباينت وجهات نظر المؤرِّخين والباحثين المحدثين حول عدد المدارس التي أنشئت، فمنهم من ذكر أنَّ العدد الإجمالي لها في مدينة قرطبة وحدها بلغ ثمانمائة [٣٠]. وقد أمدَّنا المؤرِّخ (Prescott) ببعض المعلومات التي تشير إلى تقدّم مستوى التَّعليم في الأندلس، فذكر أنَّ التَّعليم كان منتشراً في جميع طبقات المجتمع الأندلسي، فكان في كلِّ قرية مدارس كافية لتلبية حاجة أهلها، وكانت الحكومة الأندلسيَّة تعمل على تقديم أفضل التَّسهيلات لجميع الطلبة، وتقدِّم لهم التَّعليم المجَّانيّ [٣١]. غير أنَّ النُّصوص التاريخية تناقض ما ذكره (Prescott) فقد ذكر لنا ابن عذاري أنَّ الحكم المستنصر أنشأ سبعة وعشرين مكتباً جديداً لتقديم التَّعليم المجاني لأبناء الفقراء خلافاً لتلك التي كانت موجودة في عهد أبيه، يقول: "ومن مستحسنات أفعاله وطيِّبات أعماله، اتّخاذه المؤدّبين يعلّمون أولاد الضّعفاء المساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكلّ ربض من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتّبات، وعهد إليهم في الاجتهاد والنّصح، ابتغاء وجهه العظيم، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتباً، منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة، وباقيها في كل ربض من أرباض المدينة"، وفي ذلك يقول ابن شخيص [٣٢]:

وَسَاحَــةُ المَسْجِــد الأَعْلَــى مُكَلَّلَــةٌ مَكَاتِبَــاً لِلْيَتَامَــى مِــنْ نَوَاحِيْهَــا
لَــوْ مُكِّنَــتْ سُــوَرُ القُــرْآنِ مِــنْ كَلِــمٍ نَادَتْــكَ يَــا خَــيْرَ تَالِيْهَــا وَوَاعِيْهَــا

ولم يتوقف صنيعه عند هذا الحدّ، فقد بذل في أخريات أيامه جهوداً مضنية للارتقاء بمستوى التعليم لجميع أفراد رعيَّته، إذ لم يحرم أحداً من فرصة نوال قسط وافر من التعليم حتَّى الفقراء منهم، ولذلك فقد حَبَّس في سنة (٣٦٤هـ) حوانيت السَّرَّاجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضُّعفاء [٣٣].

وقد حفظت لنا كتب التَّراجم الأندلسيَّة والفهارس وبرامج الشُّيوخ والمصادر الأدبيَّة والتَّاريخيَّة كمَّاً هائلاً من أسماء الكتب التي خطَّتها أقلام أندلسيَّة غير أنَّها لم تصل إلينا نتيجة العوامل آنفة الذِّكر. وما من شكٍّ في أنَّ علماء الأندلس قد أبدوا اهتماماً كبيراً ببرامج الشيوخ، ووضعوا كثيراً منها، وقد سجَّلت لنا تلك البرامج عدداً ضخماً من النتاج الفكريّ الأندلسيّ، وتكمن أهميَّة هذه البرامج في أنَّها كتب سجَّل فيها أصحابها أسماء المؤلَّفات التي كانوا قد قرؤوها في مختلف العلوم، فكان صاحب البرنامج يعمل على ذكر عنوان الكتاب واسم مؤلِّفه والشَّيخ الذي قرأه عليه أو أخذه عنه.

وتُعدُّ فهرسة ابن خير الإشبيلي من أضخم الفهارس التي وصلتنا عن حياة الأندلسيين العلميَّة لكثرة ما ورد فيها من أسماء للكتب [٣٤] ، إذ ورد فيها قائمة طويلة اشتلمت على أكثر من ألفي كتاب للكتب المشرقية التي أدخلت على الأندلس، وكذلك التي ألَّفها علماء أندلسيُّون، وكان المؤلِّف قد قرأها ورواها على أيدي الشيوخ الأجلاء.

وقد حفظت لنا بعض المصادر التاريخية العديد من النُّصوص التي أرشدتنا إلى كثير من هذه الكتب الضائعة والمفقودة والتي لا نعرف منها إلَّا عناوينها، ومن ذلك رسالة ابن حزم الأندلسي في فضائل الأندلس التي اقتصر فيها على ذكر أسماء المشاهير من علماء الأندلس ومصنفاتهم في فروع العلم المختلفة. وقد أورد المقَّريُّ نصَّ تلك الرِّسالة في «نفح الطيب»، واتبعها برسالة أخرى ذيّل فيها ابن سعيد على رسالة ابن حزم [٣٥] ، ففي هاتين الرِّسالتين سجلٌّ حافل لأسماء كثير من الكتب المفقودة، ويعد كتاب «طبقات الأمم» للقاضي صاعد أنموذجاً وشاهداً على تلك الكتب التي تعرَّضت للضياع، فلم يصلنا كثير من الكتب التي ذكرها في متن كتابه.

واستناداً إلى المعلومات المتوافرة لدينا حول كثير من كتب التراث الأندلسي المفقودة، والتي ذكر المؤرخون بعض أسمائها وأشاروا إليها في ثنايا كتبهم، فإنَّه بإمكاننا الخروج بتصور معقول وتقدير مقبول لحجم ذلك التراث الضائع والمخبوء في خزائن المكتبات المنتشرة في مختلف مدن العالم، وهذا يقودنا إلى الحديث عن مدى مصداقيَّة المؤلفين في إشارتهم إلى تلك الكتب التي لم تصل إلينا، فكثيراً ما كانوا ينقلون منها كثيراً من الأخبار، ويشيرون إلى اطِّلاعهم على تلك الكتب وقراءتها غير مكتفين بالرِّواية والسَّماع، ولعلَّنا نجد

ما يؤكِّد لنا هذا الرَّأي القطعة التي نقلها المقَّريّ في كتابه «نفح الطيب» عن كتاب «تاريخ ميورقة» لابن عميرة المخزوميّ والذي اعتبر في عداد الكتب المفقودة ردحاً طويلاً من الزَّمن، ولمَّا كان اكتشاف ذلك المخطوط في إحدى الزوايا في تندوف في الجزائر، ظهر لنا ما يبرهن على صدق ودقَّة ما نقله المقَّريّ عن ذلك الكتاب الذي ظلَّ حبيساً على رفوف تلك الخزانة، وحجب عنا كثيراً من أخبار أهل تلك الجزيرة التي تعرضت لأبشع النكبات عند سقوطها، ولا شكّ في أن المعلومات الواردة في هذا الكتاب قد غيَّرت مجرى التاريخ وكشفت لنا معلومات غيَّبتها المصادر التاريخيَّة العربيَّة، وناقضت كثيراً مما أوردته المصادر المسيحية حول القصص والظروف والأحداث الغامضة التي أحاطت بظروف سقوط ميورقة. ويرجع الفضل في الكشف عن ذلك الكتاب النَّادر إلى الدكتور محمَّد بن معمر، الذي حقَّق الكتاب ونشره، وكان للدكتور نيقولاس روزير نيبوت الفضل في نقل هذا الكتاب القيِّم وترجمته وتقديمه إلى القرَّاء باللُّغتين الكتلانية والإسبانية. وبناء عليه فإنَّ هذا الكشف يؤكِّد على مصداقية المقَّريّ وأمانته في النَّقل، ولهذا يمكن الاعتماد عليه والاطمئنان إلى ما كتب ونقل؛ لأنه من العلماء الثقات.

ولكي نهتدي في هذه المرحلة من البحث إلى مؤشرات تسمح لنا بإجراء تصور منطقي لحجم التراث الأندلسي المفقود عبر عقد موازنة بسيطة للقلَّة القليلة من الكتب الأندلسيَّة التي وصلت إلينا مع أسماء الكثير من الكتب التي ورد ذكرها في ثنايا المصادر التاريخيَّة، وبين تلك الموجودة في خزائن مكتبات العالم، فإنَّنا نصل إلى نتيجة تثبت أنَّ التراث الأندلسي قد تعرَّض إلى كثير من الطَّمس والتَّشويه، وعمدتنا في ذلك الإشارات التي عثرنا عليها في بعض مصادر التراث والتي جاءت لتؤكد ضخامة حجم ذلك التراث وغزارته.

ولا شك في أن المعضلة التي نبحث لها عن حلّ ونحاول وضع تصور لها، هي تلك التي تتعلق بالعبارات التي تنطوي على ألفاظ ومصطلحات مبهمة غير محدَّدة حول المؤلَّفات التي صدرت عن العلماء أو الكتب التي اقتنوها في مكتباتهم من نتاج غيرهم من حيث: تقدير عدد الكتب المؤلَّفة، وبيان حجمها وتحديد عدد صفحاتها. فنقرأ مثلاً «وضع كتاباً في مئة مجلد» [٣٦] ، ونقرأ «واقتنى من الدفاتر والأصول العتيقة كثيراً» [٣٧] ، و«اقتنى من الدفاتر والدواوين شيئاً عظيماً ونافس فيها وغالى في أثمانها وربَّما رحل في ذلك حتَّى حصل منها ما أعجز أهل بلده» [٣٨] ، ونقرأ أيضاً عن أحدهم «وكانت له همَّة عالية في اقتناء الكتب وجمعها. جمع من ذلك شيئاً عظيماً» [٣٩] . ومن ذلك أيضاً «كان – رحمه الله – شديد العناية بالكتب، كثير المغالاة في قيمها وأثمانها، حتَّى صار له من أعلاقها وذخائرها، ما عجز عن تحصيله كثير من أهل بلده» [٤٠] .

فمثل هذه العبارات لا تسمح لنا بوضع تقدير دقيق لحجم التُّراث الأندلسي؛ لأنَّها لا تقدِّم أيَّة إشارة يمكن من خلالها وضع تحديد دقيق لعدد صفحات تلك الكتب أو حتَّى تقدير حجمها؛ نظراً لاختلاف المصادر في تقدير حجم كُلٍّ من الدَّفتر والكرّاسة والكتاب والسِّفر والمُجَلَّد والفهرسة، إلا أنها في المجمل تدلّ دلالة واضحة على كبر حجم نتاج العلماء في مؤلفاتهم الأدبية والعلمية. والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها الكتاب الموسوعيِّ المُسمَّى بـ»المُظَفَّريَّات» للمُظَفَّر بن الأفطس، فقيل إنَّه يقع في مائة مجلَّد، وفي رواية أخرى خمسين مجلَّداً [٤١] . ومعروف أنَّ المجلَّد جزء من الكتاب، وقد قدّر القُدَمَاءُ أنَّ كُلّ مجلَّد يشتمل على عشر ورقات اعتماداً على التَّقدير الذي ذكره ابن خلكان في ترجمته لأبي محمَّد اليزيديّ، فقد كتب عنه ابن أبي العتاهية قريباً من ألف مجلَّد عن أبي عمرو بن العلاء، فيكون ذلك عشرة آلاف ورقة [٤٢] . وفي تصوُّرنا أنَّ المجلَّد كان في ذلك الوقت صغير الحجم قليل الأوراق، لا على النَّحو المتعارف عليه في يومنا هذا، من أجل تسهيل عمليَّة حمله من ناحية، والبحث فيه من ناحية أخرى؛ وذلك لسماكة الورق أو الرِّق الذي كان يكتب عليه قديماً، وبناء على هذا التقدير فإنَّ عدد صفحات كتاب ابن الأفطس تصل إلى ألف ورقة، وهذا تقدير معقول لحجم ذلك الكتاب.

وإذا ما افترضنا أنّ أحدهم قد ألَّف كرَّاسة واحدة وهي جزء من الكتاب، وكانت تطلق قديماً على المجلَّد، فإنَّ القدماء – أيضاً– اختلفوا في تقدير عدد ورقاتها، فمنهم من جعلها عشر ورقات ومنهم من جعلها اثنتي عشرة ورقة، وقد تزيد أو تقل عن هذا العدد [٤٣] .

وإذا ما استوقفنا الحديث عن الفهرسة، وهي عبارة عن سجل يحتوي على أسماء الكتب المخطوطة أو المطبوعة، فإن هناك تفاوتاً كبيراً حول تقدير عدد صفحاتها، إذ يتراوح عدد ورقاتها ما بين ثلاثين إلى خمسين، وهذا يقودنا إلى ما ذكره ابن الأبّار عن مكتبة الحكم المستنصر، فأشار إلى أنَّها تشتمل على أربع وأربعين فهرسة، في كلٍّ واحدة منها خمسون ورقة اقتصرت على أسماء الدواوين الشِّعرية التي اشتملت عليها المكتبة، فكم يكون عدد فهارس قائمة أسماء الكتب التي اشتملت عليها تلك المكتبة في مختلف الموضوعات؟ [٤٤] . وهذا يعني أن فهارس المكتبة الخاصَّة بدواوين الشِّعر وحده تحتوي على ألفين ومائتي ورقة، ولهذا فإنَّ العدد الإجمالي للكتب التي ذكرتها المصادر لهذه المكتبة هو عدد تقديري صحيح لا مبالغة فيه.

وإذا ما أخذنا العدد التقديري الآخر لعدد ورقات الفهرسة بحسب ما ذكر ابن خير فإنَّه يقلُّ ليصل إلى ثلاثين، وقد استندنا في هذا إلى ما ذكره لجابر بن أحمد القرشي أن فهرسته تشتمل على عشرة أجزاء، في كل جزء منها ثلاثون ورقة [٤٥] . وإذا افترضنا أن فهرسة ابن خير تشتمل على ثلاثين ورقة في كلِّ كرّاسة من كرَّاساته العشر، فإننا نستنتج من العبارة

التي ذكرها ابن الأبار آنفاً أن عدد ورقات فهرسته ثلاثمئة ورقة، وهذا يتطابق مع ذلك العدد الكبير للكتب التي أوردها في فهرسته.

أما فيما يتعلَّق بالسِّفر وهو الكتاب، فقد قدّر القدماء بأنَّ عدد أوراقه يتراوح ما بين مائة وخمسين إلى مائتي ورقة [٤٦] ، فهذا الاختلاف حول الوصول إلى عدد دقيق لجميع المصطلحات آنفة الذِّكر كالدَّفتر والكُرّاسة والكتاب والسِّفر والمُجَلَّد والفهرسة، نجد أنَّ الفرق بينها ليس ذا أهمية كبيرة إذ لا يعدو كونه ورقات قليلة تزيد أو تنقص، لكن المعضلة التي تواجهنا في تقدير حجم النتاج الأدبي والعلمي لهذا العالم أو ذاك، تكمن في تلك العبارات العامة التي لا تحمل في مضامينها أيَّة دلائل تساعدنا في التوصل إلى تحديد دقيق لعدد المؤلفات التي أنتجها العلماء من ناحية، أو تلك التي كانوا يقتنونها في مكتباتهم الخاصَّة من ناحية أخرى، لكن هذه الإشارات في نهاية الأمر تطلعنا على ضخامة أعداد الكتب التي وضعها علماء الأندلس.

وعند الحديث عن قضية فقدان مصادر التراث الأندلسي وضياعه يرى الباحث أنَّه من الأهميّة بمكان الحديث عن ذلك من خلال محورين: يتناول الأوَّل تتبع مسألة فقدان الكتب أو سرقتها أو إحراقها في مختلف مصادر التراث الأدبية منها والتاريخية. أمّا المحور الثاني فإنّه يسلّط الضوء على أكبر الجرائم التي ارتكبت بحقّ الكتب والمخطوطات العربيَّة.

المحور الأول ـ الإشارات الواردة في كتب التراث حول مصير مؤلفات بعض العلماء الأندلسيين:

عاشت بلاد الأندلس حالة من الازدهار الثَّقافي ردحاً طويلاً من الزَّمن، وقد أنتجت تلك البلاد كمَّاً هائلاً من المصنَّفات بحيث يصعب حصر عددها والوقوف عليها جميعاً، وذلك نتيجة للنكبات المتتالية التي لحقت بتلك البلاد وكان لها آثارها المدمّرة على الأوساط الثّقافية في ذلك العصر، ولا مِرَاءَ في أنَّ بلاد الأندلس التي شهدت حركة علميَّة نشطة قد رفدت المكتبة العربية بكم هائل من الكتب والمصنَّفات في مختلف العلوم والفنون، وقد عجَّت تلك البلاد بالعلماء والأدباء، وغصّت ساحات المساجد بالطَّلبة الذين تدفّقوا عليها من كُلِّ حَدَبٍ وصَوْب.

وكان للنَّكسات التي مُنِيَتْ بها الحركة العلميَّة في بلاد الأندلس أثرها السَّلبيّ على الازدهار الثَّقافيّ، وبخاصَّة زمن الفتنة البربرية، وفي عهد المنصور بن أبي عامر الذي أعلن الحرب على المشتغلين بالفلسفة والتنجيم، ممَّا أدى إلى خفوت نور العلم، وأُعْمِلَ السّيف في رقاب بعض العلماء لأنَّهم تبنّوا فكراً معيّناً أو اشتغلوا بعلم نَظَرَ إليه بعضهم على أنّه كُفْرٌ

وإلحادٌ، وفرضت القيود وأصدرت الأوامر بقتل هذا العالم أو بإحراق كتبه وإعدامها علانية على مرأى من الجميع، وقد كُتِبَ النَّفْي والتَّشْريد والإبعاد على بعض العلماء ممّن آثروا الفرار هرباً وخوفاً من القتل، وقد آثر بعضهم الصَّمت والتَّكتّم على علمه إلى أن يقضي الله أمراً (٤٧).

ولعل مصادر التراث الأندلسي الأدبية منها والتَّاريخيّة خير دليل يمكن من خلاله أن نرسم صورة واضحة جليّة عن حجم الكتب والمصنفات التي تَعرَّضت للإحراق أو النَّهب والسّرقة أو الضّياع، وقد أمدَّتنا تلك المصادر بالعديد من الأخبار عن كبار المشتغلين بجمع الكتب في مختلف المدن الأندلسيَّة، ولعل أبرزهم ابن فُطَيس (٤٨)، إذ جمع من الكتب في مختلف أنواع العلوم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره في الأندلس، وقد وظَّف في مكتبته ستة من الورّاقين ليعملوا على نسخ ما يمليه عليهم من الأحاديث والأخبار.

وقد ذكر صاحب كتاب «أدباء مالقة» أنَّ محمداً بن سعيد الغسَّانيّ (٤٩) كان مهتمّاً بجمع الكتب الفريدة والنَّادرة التي لم يكن يملكها أحد سواه، وكان هذا الرجل كثير المطالعة حتى قيل إنّه لا يكاد يوجد كتاب فريد في مكتبته إلاَّ وخطّه عليه (٥٠). ولهذا عدَّ ابن الأبَّار مكتبته تلك من كبرى مكتبات الأندلس (٥١). وقد أشار ابن سعيد إلى أنَّ إبراهيم بن عبيد الله المعروف بالنَّواله كان يملك مكتبة ضخمة، وقد أشاد الحِجَاريُّ (٥٢) بفضل هذا الرَّجل لأنَّه فتح أبواب مكتبته العظيمة له، فأعانته كثيراً في تأليف أحد مصنَّفاته (٥٣) وهكذا انتشرت ظاهرة جمع الكتب لدى جميع أبناء المجتمع الأندلسي.

ولم يكن جمع الكتب والعناية بها قاصراً على المهتمين بها من أمراء وعلماء بل تعدّاهم إلى هواة جمع الكتب من الرجال الأثرياء الذين رأوا من الأهميّة بمكان إضافة زاوية خاصّة للكتب في بيوتهم كنوع من المباهاة والتَّفاخر كما ذكرنا آنفاً، وقد بذل أولئك النّفر من النَّاس أموالاً طائلة في سبيل المفاخرة بأنَّ لديهم كتاباً فريداً أو نسخة أصليّة منه بخطّ فريد، وقد حدَّثنا المقَّري عمّا دار في سوق بضاعة الكتب بمدينة قرطبة بين أحد الرّجال العلماء الذي أبدى حزناً على كتاب فريد تحيّن الفرصة ليشتريه من المزاد الذي كان يقام في سوق بيع الكتب بقرطبة، غير أنَّ أحد الأغنياء قد سبقه إلى ذلك، ودفع ثلاثة أضعاف ثمنه بغية الحصول عليه (٥٤).

وقد حرص التلاميذ من أبناء الأندلس على تدوين ما يمليه عليهم شيخهم في مجلس العلم بأمانة وصدق، وهذا ما ساعد ريبيرا في تقديم بعض التَّقديرات الأوليَّة لعدد الكتب التي كان ينجز نسخها في قرطبة وحدها (٥٥)، فذكر أنَّه كان يُنْسَخُ سنويَّاً ما بين سبعين إلى ثمانين ألف نسخة، وقد استند في هذا التقدير إلى الأعداد الكبيرة لطلبة العلم فيها والذين

قدَّر عددهم بنحو خمسة آلاف إلى ستَّة آلاف، وأضاف إلى ذلك التقدير كثرة أعداد النسوة اللاتي كُنَّ ينسخن القرآن، فضلاً عن الوفرة الكثيرة لأعداد الورَّاقين الذين كانوا يُشغِّلون نسَّاخين مختصِّين لنسخ الكتب. ومع ذلك فلم يكن ريبيرا مطمئناً إلى دقَّة ذلك التَّقدير لعدد الكتب المستنسخة في قرطبة وحدها، غير أنَّه استند في وضع ذلك التصور في تقدير الكتب المستنسخة إلى بيتين ذكرهما ابن بشكوال على لسان أحد شيوخ قرطبة عبَّر من خلالهما عن غبطته وفرحته عندما رأى ألف تلميذ يلتفُّون حوله في المسجد الجامع، وكان مع كلِّ تلميذ منهم قلماً ومحبرة، وقد هيَّأ نفسه لينسخ ما يمليه عليه ذلك الشيخ الجليل، فقال: (٥٦)

إنّي إذَا حَضَرَتْنِي أَلْفُ مِحْبَرَةٍ   يَكْتُبْنَ حَدَّثَنِي طَوْرَاً وَأَخْبَرَني
نَادَتْ بِعَقْوَتِي الأَقْلَامُ مُعْلِنَةً   هَذي الْمَفَاخِرُ لاَ قَعْبَانِ مِنْ لَبَنِ (٥٧)

ومن خلال قراءة ما ورد في المصادر الأدبيّة منها والتَّاريخيّة حول مصنّفات العلماء الأندلسيين نجد شذرات متفرّقة تُشير إلى عوامل عدَّة ساهمت في ضياع كثير من الكتب وفقدانها، فقد ضاع كثير من الكتب نتيجة الحروب، فمن ذلك ما ذكره النُّباهي عن القاضي ربيع بن عبد الرحمن الأَشْعَرِيّ (٥٨) الذي كانت الكتب عنده أغلى ما يملك، فذكر أنَّه فقد ماله وكتبه ووطنه عندما استولى الرّوم على بلده قرطبة، غير أنَّه كان يعتبر ضياع ماله أهون على نفسه من المصيبة الكبرى التي فقد فيها كتبه (٥٩) . ففي هذا الخبر إشارة واضحة إلى كتب كثيرة مفقودة، غير أنَّنا لا نستطيع الوقوف على رقم دقيق نستطيع من خلاله حصر عددها. وقد ضاعت ذخائر أحمد بن عبد الرحمن الخزرجيّ التي لا تحصى ولا يمكن تقديرها بثمن حينما وقعت عليه المحنة الكبرى لحظة دخول الموحدين مرَّاكش سنة (٥٤١هـ) فتمادوا في القتل واستباحوا دماء البالغين من الذُّكور (٦٠) .

وقد ضاع كثير من الكتب التي اقتناها أبناء الأندلس أثناء السَّفر والترحال خلال تنقلهم بين البلاد الأندلسية أو خارجها، فهذا مروان بن عبد الملك القُرْطُبِيّ (٦١) تضيع كتبه عندما خرج من بلده قرطبة قاصداً بعض البلاد، وكان محمد بن أحمد العبيدي واحداً من الذين ضاعت كتبهم نتيجة الترحال فقد ذكر المرَّاكشي أنَّه لما غادر بلده إشبيلية أخرج معه خمسمائة مجلَّد غير أنَّه لم يقف إلَّا على نحو ستّين منها (٦٢) .

ولا ننسى أنَّ كثيراً من مصادر التراث الأندلسي قد تعرَّض للنّهب والسّرقة أثناء الفتن الداخليَّة، وبخاصّة أثناء الفتنة البربرية التي كانت السَّبب في تدمير مكتبة الحكم المستنصر وضياع الكثير من كتبها، ومن أولئك الذين سُرقت كتبهم عُمَرُ بنُ عُبَيْد الله الذُّهلي (٦٣) ، فقد سُرِقَ منه ثمانية أحمال منها عندما همَّ بنقلها إلى مكان آمين، فما لبث أن هجم عليه البربر وانتهبوها منه (٦٤) . وقد لقيت كتب عبد الله ابن محمَّد الصنهاجي المصير نفسه نهباً

وسرقة [٦٥] . وقد ذكر ابن الخطيب أنَّ الأيدي قد استولت على ذخائر كتب أحمد بن إبراهيم الثَّقفي عندما فرَّ هارباً مؤثراً النجاة بنفسه على أثر الوشاية والفتنة التي دبَّت بينه وبين التَّجيبيين في مالقة [٦٦] .

وقد ذكر ابن الأبار أسماء العديد من الأعلام الذين ضاعت كتبهم أو انتهبت نتيجة إهمالهم وعدم مقدرتهم على حفظها، فمن هؤلاء محمد بن غَلْبُون [٦٧] الذي تعرّضت كتبه للفقد والضياع، فأشار إلى المأساة الكبيرة التي لحقت بمكتبته التي كانت مليئة بالكتب القيِّمة، فقال: "وَكَانَتْ لَهُ خَزَانَةٌ مَمْلُوءَةٌ أُصُولاً عَتِيْقَة وَدَفَاتِر أَنِيْقَة ضَاعَتْ لاخْتِلاَله قَبْلَ وَفَاته بِمُدّة" [٦٨] .

وكان إحراق الكتب عاملاً في ضياع الكتب وبخاصة في الفترة التي وقف فيها بعض الأندلسيين موقفاً معادياً من بعض علوم الأوائل كالعلوم الفلسفية والمنطقية وما اتصل بها كالفلك والتَّنْجيم، فنظروا إلى كُلِّ مَن اشتغل في تلك العلوم على أنَّه زنديق فاجر خارج عن أصول الشَّريعة، واتَّهموه بالإلحاد ورجموه بالحجارة، ودفعوا السلاطين إلى قتله وإحراق كتبه، وخير دليل على ذلك الخبر الذي تناقلته المصادر التاريخيَّة عن قيام المنصور بن أبي عامر بإحراق كتب الفلك والتنجيم على الملأ تقرباً وتزلّفاً للفقهاء والعامَّة، وفي ذلك يقول صاحب كتاب "نفح الطّيب": "فإن زلَّ في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة، وكثيراً ما يأمر بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت" [٦٩] .

وهذا يقودنا إلى الحديث عن إحراق تلك الكتب – أعني كتب الفلسفة والتَّنجيم وما اتَّصل بهما– التي أمر السلاطين بتقديمها إلى النيران إرضاء لأولئك الفقهاء الذين كانوا يعملون على تأجيج الغضب الشّعبي تجاه أولئك العلماء، وكانوا يدفعون النّاس إلى زيادة الضّغط بمطالبة السّلاطين بإحراق تلك الكتب.

ولم يقف الأمر عند إحراق المنصور لكتب الفلسفة، فقد أصدر قاضي قرطبة مُحَمَّد بن يَبْقَى [٧٠] أمراً يقضي بإحراق كتب ابن مَسَرَّة [٧١] بجانب المسجد الجامع في قرطبة، ولم يكتف بذلك، بل جمع جميع الكتب من أتباع ابن مسرّة، وأحرق ما جُمِعَ من الكتب بيده [٧٢] . وقد تكرّر مشهد إحراق الكتب في معظم المدن الأندلسية، على نحو ما فعل أبو مروان بن أبي عيسى [٧٣] وجماعة من الفقهاء فأقدموا على إخراج كتب خليل بن عبد الملك بن كُلَيْب وأحرقوها بالنَّار [٧٤] .

ولعلَّ أكبر شاهد على جرائم إحراق الكتب تلك الجريمة التي صدرت بحق بعض كتب ابن حزم الأندلسيّ ذلك الذي يعدّ من أشهر أعلام وعلماء الأندلس. فقد لاقى هذا العالم كثيراً

من الحسد والمحاربة من قبل فقهاء المالكيَّة الذين حاربوه بكلِّ ما أوتوا من قوَّة بهدف تحطيمه والقضاء على مذهبه، وقد كانت مناظرات أبي الوليد الباجي السَّبب المباشر في إحراق بعض كتب ابن حزم، ولن يغفر التاريخ تلك الجريمة التي اقترفها المعتضد بن عبّاد بحق تلك الكتب، ولهذا أظهر صاحبها سُخْطاً وغضباً على ذلك، غير أنَّ ذلك لم يُضِرْه، فما احتوت عليه تلك الكتب ما زال محفوراً في عقله، محفوظاً في صدره، ملازماً له أينما ذهب حتّى مماته، يقول متحدِّياً:

فَــإِنْ تَحْرِقُــوا الْقِرْطَاسَ لاَ تَحْرِقُوا الَّذِي تَضَمَّنَهُ الْقِرْطَاسُ بَــلْ هُوَ فِي صَدْرِي [٧٥]

يَسِــيْرُ مَعِــي حَيْــثُ اسْتَقَلَّــتْ رَكَائِبِي وَيَنْــزِلُ إِنْ أَنْــزِلْ وَيُدْفَــنُ فِي قَــبْرِي

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الإرث الذي تركه ابن حزم قد تعرَّض لمحنتين كبيرتين: تتعلَّق الأولى بالإحراق المتعمَّد لبعض كتبه من قبل المعتضد بن عباد كما ذكرنا، أمَّا الثَّانية فتتمثَّل في ضياع كثير من المؤلَّفات التي خطَّتها يد هذا العالم الكبير، فقد أحصى الدكتور إحسان عباس في مقدِّمة تحقيقه لرسائل ابن حزم ثلاثة وثمانين كتاباً من الكتب التي آلت إلى مصير مجهول ولم تصل إلينا [٧٦].

يضاف إلى تلك الجريمة جريمة أخرى ذكرها المقَّريّ بحقّ ابن الأبَّار [٧٧] الذي كُتِبَ عليه القَتْل؛ وذلك لأنَّه عندما ساءت العلاقة بينه وبين سلطان تونس، فأَصْدرَت الأوامر بإحضار جميع كتبه، وعند تفتيشها زعموا أنَّه وُجِدَ فيها أبيات شعريّة في هجاء السُلطان، فاستشاط الأخير غضباً عند سماعها، فأمر بقتله وإحراق جسده وأمر بإحراق كتبه وأوراقه ودواوينه معه [٧٨].

ويقف الباحث متسائلاً حول إمكانيّة الوصول إلى تصوّر منطقي نستطيع من خلاله وضع تقدير معقول لحجم التراث الأندلسي المفقود، أو التَّكهُّن بمصيره وما تعرّض له من فقد وضياع، وإذا ما تأمَّلنا العبارات المتناثرة في كتب التاريخ الأندلسي فإننا ندرك تماما أنّ ما وصل إلينا من تراث الأندلس هو أقل بكثير مما أحرق أو ضاع، ولدينا على ذلك مثال واحد أمدَّنا به ابن الفرضي عن يحيى بن مالك الطَّرطوشيِّ الذي رحل إلى بلاد المشرق مدة اثنتين وعشرين سنة، وعندما عاد إلى بلاد الأندلس مستحضراً بعضاً من كتبه التي ألفها في المشرق، فسمعه يقول: "لَوْ عُدَّتْ أَيَّام مَشْيِي في الْمَشْرِق، وَعُدَّت كُتُبِي الَّتي كَتَبْتُ هُنَاكَ بِخَطّي، لَكَانَتْ كُتُبِي أَكْثَرَ مِنْ أَيَّامِي بِهَا" [٧٩]. فهذا النَّصّ يضعنا أمام حقيقة مهمة تتعلق بمؤلفات ذلك العالم الأندلسي، ولا نرى فيها ضرباً من المبالغة والمباهاة إذا ما علمنا أن كثيراً من أبناء الأندلس قد توجَّهوا إلى المشرق في رحلات طويلة طلباً للعلم، وكثيرون هم الأندلسيون الذين ألَّفوا كتبهم في بلاد المشرق وعادوا بها إلى أوطانهم.

ويعود الباحث ليؤكِّد مرَّة أخرى على ضخامة النتاج الذي تركه ابن حزم، غير أنَّ كثيراً من كتبه قد تعرَّض للضياع والإحراق كما ذكرنا، وقد أخبرنا القاضي صاعد بأنَّ الفضل بن حزم قد ذكر له أنَّه اجتمع عنده من الكتب التي كتبها أبوه بخطِّه أربعمائة مجلَّد، تشتمل على نحو ثمانين ألف ورقة، ولهذا اعتبره القاضي صاعد ثاني أكبر شخصيَّة في تاريخ الإسلام من حيث إنتاج الكتب بعد الطَّبري (٨٠).

ولعلَّ من الغريب حقَّاً ما ذكره ابن بسَّام عن مكتبة أحمد بن عبّاس (٨١) الذي ذاع صيته وشاع خبره في بلاد الأندلس لشدَّة حبِّه للعلم والأدب وولعه بجمع الكتب والدَّفاتر، فبذل في سبيل الحصول عليها كثيراً من الأموال، وقدَّم لنا ابن بسَّام رقماً إحصائيَّاً دقيقاً لما اشتملت عليه مكتبته من مؤلّفات ومصنّفات، لكنَّه أحجم عن تحديد عدد الدفاتر والكراريس التي كانت موجودة في تلك المكتبة لكثرتها، فقال: "بلغت المجلدات في التحصيل أربعمائة ألف، وأمَّا الدفاتر المخرومة فلم يوقف على عددها لكثرتها" (٨٢).

وحقيق بنا أن نقف على تلك العبارات التي عثرنا عليها أثناء بحثنا وتنقيبنا في مصادر التراث الأندلسي لنقدّم تصوّراً كاملاً حول تلك الكتب التي كُتبَ عليها الطَّمس والضَّياع وآلت إلى مصير مجهول. ولعل أبرزها مؤلفات ابن الصَّيْرَفيّ (٨٣) أشهر عالم بالقراءات في الأندلس، فقد ذكر الضَّبِّي أنّه رأى بعض أشياخه قد جمع ذكر تواليفه في جزء من نحو مائة تأليف (٨٤). ونتساءل باستغراب – أيضاً– عن مصير الكتب النفيسة التي جمعها محمد بن يحيى الغَافِقِيّ المَعروف بابن المَوْصُولِ (٨٥)، الذي جمع من الكتب ما لا يمكن حصره في عدد، وهذا ما دفع ابن الأبار إلى الإشادة بتلك المكتبة التي كانت تضاهي فيما اشتملت عليه مكتبة الخليفة الحَكَم المُسْتَنْصِر (٨٦).

وقد سكتت بعض المصادر عن ذكر الأسباب إلى أدَّت إلى ضياع الكتب وفقدانها، فمن الكتب التي لم تصل إلينا كتاب "العَالم" لابن سِيْد (٨٧) وهو كتاب في اللغة، قيل إنَّه يقع في مائة مجلد (٨٨). وقد ذكر المقَّريّ أنَّ كتب عبد الله بن حبيب السُّلْمِيّ قد بلغت ألفاً (٨٩) فيا ترى أين هي؟ وما مصيرها؟ وقد وقف الضَّبي طويلاً عند العالم النَّحويِّ مَكِّي بن حموش الذي ترك كثيراً من المؤلّفات المشهورة، وقد ذكر له بعض شيوخه أنَّه جمع أسماء كتبه ووضعها في مجلَّد، وقال إنَّ عدد كتبه يصل إلى خمسة وثمانين كتاباً (٩٠).

ومن بين الأخبار التي كنَّا قد قرأناها في ذخيرة ابن بسَّام ذلك الخبر الذي يتعلَّق بالشيّخ أبي عبد الصَّمد أحد شيوخ سرقسطة وكتَّابها البارزين، فأشار إلى أنَّه كتب قرابة خمسمائة رسالة أقَّل واحدة منها تقع في عشر ورقات، غير أنَّ تلك الرّسائل لم يقدَّر لها الوصول إلينا (٩١).

ولعلَّ من الغريب حقّاً ما قرأناه عن العالم النَّحويّ ابن العريف، فذكرت بعض المصادر أنَّه وضع مسألة في النَّحو اشتملت على مائة واثنين وسبعين ألف وجه [٩٢] ، فنتساءل كم بلغ عدد ورقات الكتاب الذي اشتمل على هذه المسألة؟ هذه أمثلة بسيطة عن القائمة الطويلة للعلماء الأندلسيين الذين لم يكتب لمؤلفاتهم النَّجاة والسَّلامة من الفقدان والضّياع.

المحور الثاني ـ إحراق الكتب والمخطوطات في الأندلس:

لا شكّ في أنَّ كثيراً من المعلومات المهمّة التي تتعلَّق بمصير التُّراث الأندلسيّ الذي كُتِبَ عليه التَّغييب والتَّشويه والطَّمس والإحراق، مازالت سِرّاً ولغزاً محيّراً للباحثين والدّارسين المهتمين بالبحث والتَّنقيب عن ذلك المصير المجهول الذي لحق بالمخطوطات والكتب العربية التي أُعْدِمت وأُبيدت لحظة سقوط غرناطة وقبلها. والنَّاظر إلى ذلك التّراث يجد أنَّه قد تعرَّض لمصير محزن فقدنا فيه كثيراً من النتاج العلمي الذي حكم عليه بالفناء حرقاً وانتهاباً، وما زالت الذاكرة تحتفظ بالحادثة المأساوية التي قضت على كثير من الكتب المحفوظة في مكتبة الحكم المستنصر إبَّان الفتنة البربريَّة، وقد سجَّل التاريخ أكبر ثلاثة مشاهد تمَّ فيها إعدام وإحراق أكبر عدد ممكن للمخطوطات العربيَّة في مدن طليطلة وقرطبة وغرناطة. وما من شكٍّ في أنَّ المدن الثلاث تعدُّ من أهم المدن الأندلسية التي رفعت منارة العلم وأبقتها مشعلة ردحاً طويلاً من الزَّمن، ناهيك عن المدن الأندلسيَّة الأخرى التي احتضنت العلماء ورعتهم حقَّ رعاية، وذلَّلت أمامهم كلَّ صعب حتَّى يبدعوا في مختلف الموضوعات.

وقد تحدَّث الكتَّاني عن المشهد الأوَّل لعمليَّة إحراق الكتب في مدينة طليطلة بعد أن تغلَّب الإسبان عليها، فذكر نقلاً عن صاحب كتاب "وفيات الأسلاف" أنَّ أسقف طليطلة أحرق ما ينوف على ثمانين ألف كتاب من الكتب الإسلاميَّة التي أفنى أصحابها أعمارهم في تأليفها وكتابتها [٩٣] . وكانت قرطبة على موعد ثانٍ مع المشهد نفسه إذ التهمت النيران في يوم واحدٍ مليوناً وخمسين ألف كتاب، وهذا ما أكَّد عليه الكتَّاني إذ ذكر أنَّه لمَّا استولى مسيحيّو إسبانيا على قرطبة أحرقوا كلَّ ما وقعت عليه أيديهم من كتب المسلمين وعددها مليون وخمسون ألف مجلد، وجعلوها زينة وشعلة في يوم واحد، ثم قاموا بعمليَّة مسح شاملة لحوالي سبعين مكتبة، وشرعوا بعمليَّة إتلاف كلِّ ما وجدوه في جميع المدن للكتب العربيَّة التي عثروا عليها، ظانِّين أنَّ جميع الكتب المحروقة إنَّما هي نسخ من القرآن الكريم، وقد تمَّت عمليَّة الإحراق في مراسيم دينيَّة [٩٤] .

وقد حاول الباحث ريبيرا أن يكون موضوعياً في حديثه عن تلك الحادثة الأليمة في غرناطة، فأتى على ذكر تفصيلاتها في بحثه الموسوم بـ: "المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا

الإسلامية"، وقدّم لذلك عرضا مفصّلاً في مستهل حديثه عن محنة حرق الكتب في باب الرّملة انطلاقاً من المرسوم الذي أصدره الملكان الكاثوليكيان فرناند وإيزابيلا، والقاضي بأن يقدِّمَ المسلمون كلّ ما لديهم من كتب، ليتم فحصها من قبل خبراء متخصصين، وكان الملكان قد تعهّدا آنذاك بردّ الكتب التي تتّصل موضوعاتها بالطّب والفلسفة والتاريخ إلى المسلمين، أما تلك الّتي تتعلّق بالدين فلا بدّ أن تُحْرَقَ لأنها تتعارض مع العقيدة المسيحية. ويبدو أن ريبيرا مقتنع تماماً بأنّ جميع الكتب التي أحرقت في باب الرملة إنما كانت دينية خالصة (٩٥).

وخلص ريبيرا إلى أنَّ تلك الحادثة قد كان فيها نوع من المبالغة والتّهويل إلى حدٍّ كبير، وبخاصَّة الرّوايات المختلفة حول العدد الحقيقي للكتب التي أحرقت، ويرى أنَّ قصّة تلك المحرقة وقع فيها كثير من التّلفيق والتزوير، والتي على إثرها انقسم الناس فريقين: مناصرين ومعارضين للكاردينال ثيسنيروس الذين رأوا أنَّ عمليّة الإحراق تلك كانت وسيلة ناجعة لوضع حد لانتشار الدين الإسلامي الذي كان متغلغلاً في نفوس النّاس، ولهذا لم يجدوا مانعاً من زيادة عدد الكتب التي أحرقت. أما المعارضون لسياسة الكاردينال تلك فإنَّهم– أيضاً– قد بالغوا في ذكر العدد الحقيقي لها وتزيّدوا فيه، ويكونون بذلك قد عبَّروا عن كبير استيائهم من ذلك النّوع من الاضطهاد الدّيني الذي لحق بالعرب. وقد حاول ريبيرا أن يعرض لنا موقفاً وسطياً لأولئك الذين وقفوا موقفاً حياديّاً من تلك الحادثة غير أنَّه لم يأتِ على ذكر أحد منهم (٩٦).

وقد قدّم لنا ريبيرا رأيين مختلفين حول تلك المحرقة، تمثّل الأولّ في تلك الصورة المعتمة التي رسمها أحد الصحفيين المحدثين لتلك الجريمة التي قضت على جانب من ثقافة المسلمين. ويظهر من عبارات ريبيرا أنّه كان متحاملاً على ذلك الصحفي، والدليل على ذلك قوله: "إذ إنَّ صحفياً متحرر الرأي جداً، لا يعرف العربية – الأمر الذي لا يسبب له خسارة ما من وراء هذا الحريق – قام برسم صورة معتمة لتلك الجريمة وذلك الاضطهاد الذي قام به ثيسنيروس". وفي موضع آخر يقول: "من الواضح أنَّ حبَّ هذا الصحفي للمسلمين قد دفعه إلى مضاعفة عدد الكتب فجعل من الآلاف ملايينا، متأسفاً لضياع هذه المجموعة التي كانت عديمة الفائدة له" (٩٧).

فالقارئ لعبارات ريبيرا يجد فيها نوعاً من السُّخرية من ذلك الصحفي في موضعين: الأول بزعمه أنه لا يعرف العربية، ولذلك فقد أظهر أسفاً على إحراق تلك الكتب والمخطوطات لعدم فهمه لها، والثاني يتعلّق بالعدد الحقيقي للمخطوطات التي أحرقت، فهو يشكّك في حقيقة عددها، ونحن لا نعرف من أين أتى ريبيرا بالرّواية التي استند إليها في موضع آخر من دراسته عندما اعتقد جازماً بأنَّ عددها هو: "خمسة آلاف مخطوطة"، وفي مكان آخر

ذكر لنا عبارة عامّة لا تشتمل على عدد محدَّدٍ، فقال: "مما أدى إلى جمع آلاف المخطوطات العربية، وإحراقها" [٩٨].

فريبيرا في هذا السياق لا يقف على رقم دقيق للعدد الحقيقي للمخطوطات التي ذهبت ضحية المرسوم التعسفي الظالم الذي أصدره ثيسنيروس. وهذا يقودنا إلى الحديث عن إجماع الرِّوايات التاريخيَّة في تسجيل تلك الحادثة الأليمة التي تعرَّض لها التُّراث العربي الأندلس، غير أنَّ هناك اختلافاً بينها في تقدير عدد الكتب التي أحرقت، فالمؤرخ (Robles) قدر عددها بمليون وخمسة آلاف كتاب [٩٩]، وتتفق المستشرقة (Sigrid Hunke) مع العدد الذي ذكره (Robles)، فقد أشارت إلى فقدان العرب لهذا الجزء المهم من ثقافتهم بعد أن جمع الأسقف ورجاله ما تبقَّى من الكتب والمخطوطات العربيَّة التي سلمت من النَّهب والسَّرقة غير أنَّها لم تسلم من ألسنة اللَّهب، إذ أحرقت يد التَّعصُّب مليوناً وخمسة آلاف من المجلَّدات التي هي حصيلة مجهود العرب في الأندلس وثمرة نهضتهم في ثمانية قرون [١٠٠]. وقدَّر المؤرخ (Pedraza) عددها بمليون وخمسة وعشرين ألف كتاب [١٠١]، وأشار سيمونيت أنَّ المؤرِّخ (Alvar Gomez de Castro) ذكر أن عددها خمسة آلاف فقط [١٠٢]، وتبعه (Flechier) في التّقدير القائل بأنَّ عدد الكتب المحروقة هو خمسة آلاف، فذكر أنَّهم جمعوا نسخاً من القرآن والكتب ذات العلاقة بالدِّين وغيرها من الموضوعات، وقاموا بإحراقها في مشهد علني أمام الجميع دون شفقة أو رحمة لتلك الكتب المذهَّبة والملونَّة والمزخرفة بأجمل الزَّخارف البديعة، ولم يستمعوا إلى نداءات بعض المطالبين بعدم إحراقها، ولعلَّ الغريب في الأمر ذلك التَّناقض الذي يتعلَّق بكتب الطِّب التي أنقذت من ألسنة النَّار، فذكر (Flechier) أنَّه أنقذ بعضها دون أن يحصر ذلك برقم على وجه الخصوص، لأنَّ موضوعاتها كانت تهمّهم كثيراً [١٠٣].

أما المؤرخ (Conde) فذهب إلى القول بأن العدد المعقول للكتب التي أحرقها ثيسنيروس يزيد عن ثمانين ألفا [١٠٤]. ووقف المؤرِّخ (Prescott) عند هذه الحادثة دون أن يذكر رقماً خاصَّاً لأعداد الكتب المحروقة في ذلك المشهد المؤلم، مكتفياً بالقول: إنَّه أحرق عدَّة آلاف من الكتب العربيَّة، الغالبية العظمى منها كانت نسخاً للقرآن الكريم ذات التجاليد والزَّخارف البديعة، وغيرها من الكتب الأخرى في مختلف العلوم والآداب، ولم ينجُ من هذه المحرقة سوى ثلاثمائة من الكتب التي تتَّصل بالعلوم الطِّبيَّة التي برع فيها العرب [١٠٥].

وفي غمرة الحديث عن اختلاف الرِّوايات حول تقدير عدد الكتب المحروقة تخرج إلينا رواية مهمَّة في مقالة كتبها (Rafel Gago y Palomo) في صحيفة (la Lealtad) التي كانت تصدر في مدينة غرناطة، ردَّاً على دفاع سيمونيت عن الكاردينال ثيسنيروس، فقد أثار ذلك العمل الذي قام به الأخير والقاضي بمصادرة كلِّ الكتب المكتوبة بالعربيَّة

وحرقها حفيظة هذا الكاتب وولَّد لديه ردَّة فعل كبيرة على تلك الحادثة المأساويَّة التي خسر فيها العرب جزءاً كبيراً من تراثهم. وقد ركَّز صاحب المقال على الرِّواية التي تؤكد وبإصرار على القلَّة العدديَّة للكتب المحروقة، وهذه الرِّواية تنسجم مع موقف المدافعين عن ثيسنيروس وموقف الكنيسة. وفيما يتعلَّق في مسألة استحالة الوقوف على رقم محدَّد لتلك الكتب، فإنَّ الكاتب يرى أنَّ هذا أمر ثانوي، لكنَّ الأهمَّ من ذلك هو أنَّه تمَّ فعلاً حرق كثير من الكتب، وهذا الأمر إمَّا أن ننكره أو نقبله، وفي حالة القبول والتسليم بذلك فإنَّه من المتوجب أن نلوم الكاردينال على ذلك التَّصرّف ولا ندافع عنه.

وفي ظل الحديث عن الفارق الكبير بين الرِّوايات التاريخيَّة لعدد الكتب المحروقة يرى الكاتب بأنَّ الموقف يتأرجح بين التَّقليل والزِّيادة، ومن منظوره فإنَّ العدد الإجمالي لما أحرق يصل إلى مليوني كتاب، ويأتي هذا الاستخلاص بناء على تضارب الرِّوايات التي لم تقف على رقم معيَّن كما ذكرنا آنفاً، فبعض النَّاس يزيدون في أعدادها وبعضهم الآخر يقلِّلون منها، ولهذا فإنَّ (Rafel Gago) أجمل العدد بمليونين، مشيراً إلى أنَّه ليس مهمَّاً عدد الكتب التي أحرقت، إنما المهمُّ في رأيه المصيبة جرَّاء إحراق تلك الكتب، ويتساءل كاتب المقالة أثناء حديثه الاستطرادي لماذا تُقْبَلُ أقل التَّقديرات لتلك الكتب، ويقصد بذلك تقدير (Flechier) و (Alvar Gomez) ، في حين يرفض التقدير الذي وضعه كل من (Pedra-za) و (Robles) ولا شك أنَّ الاتفاق القائم بين الثلاثة على تقليل العدد إلى نحو خمسة آلاف كتاب لم يأتِ من باب الصُّدفة، وذلك لأنهم جميعاً كتبوا عن سيرة حياة الكاردينال ثيسنيروس، ولهذا وقفوا مدافعين ليدافعوا عنه وعن أعماله، ومن غير المعقول أن يلومه أحد على الأعمال السيئة التي اقترفها بحق المسلمين وتراثهم، ونتيجة لهذا فإنَّه رفع هو الآخر تقديره لعدد الكتب ليصل إلى مليونين.

وفي ردِّ (Rafel Gago y Palomo) على موقف سيمونيت المتشكك حول الزِّيادة المفرطة في عدد المخطوطات المحروقة، إذ زعم أنَّ امتلاك أهل غرناطة لمليوني كتاب يوحي بأنَّهم أكثر أهل الأرض تحضُّراً، في حين أنَّ ذلك الواقع لا ينعكس في الوثائق التي وصلت إلينا، فهم أمَّة لم يتجاوزوا حدود الهمجيَّة على حدِّ تعبيره، وهنا تساءل كاتب المقالة مستنكراً. كيف كانت تلك الوثائق تصل إلينا إذا كانت محروقة؟ وعاد ليؤكِّد أنَّ أهل الأندلس تعرضوا لإبادة قاسية، هدمت من خلالها عناصر ثقافتهم وانتزعت مصادر شهرتهم منهم، ومن ثمَّ يوصف أهلوها بالهمجيَّة. ورفض كاتب المقالة الرأي القائل بإنَّ الكتب المحروقة كانت معظمها تتعلق بالقرآن الكريم وبالدِّين الإسلامي، فهذا في رأيه مجرَّد افتراض غير مقبول ما لم تكن هناك براهين شافية وكافية تثبت ذلك، وإنَّما كان القرار الصادر يقضي

بجمع جميع الكتب المكتوبة بحروف عربيَّة من المكتبات العامَّة والخاصَّة من أجل حرقها دونما اعتبار لموضوعاتها ومضامينها (١٠٦).

ويظهر للباحث من كلام صاحب المقالة أنَّه كان على خلاف عميق مع سيمونيت الذي انبرى للرّدّ عليه فيما كتب، إذ زعم أنَّ كتاباته تلك تنمُّ عن موقف محرِّض ومعادٍ للكنيسة، فهو رجل متحرِّر الفكر على حدِّ وصفه، يعمل دائماً على انتقاد أعمال الكنيسة. وفي المقابل فإنَّ سيمونيت معروف بأنَّه شديد التّعصّب للكنيسة دائم الحرص على الدِّفاع عنها وعن موقفها تجاه هذه المسألة تحديداً، ولهذا لجأ إلى التقليل من أعداد الكتب المحروقة والدِّفاع عمَّا قام به ثيسنيروس في الوقت الذي كان فيه أتباعه يزيدون في عدد الكتب التي أحرقها شرفاً وتفاخراً بصنيعه.

ويستنتج الباحث أن هذا التفاوت والاختلاف حول تقدير العدد الحقيقي للمخطوطات التي أضرمت فيها النار يرجع إلى غياب رواية تسجيلية في المصادر العربية لهذه الحادثة المؤلمة. كما أن بعض المؤرخين قد قلل من عدد هذه الكتب بهدف التقليل من شأنها وقيمتها العلمية والأدبية، مكتفين بالإشارة إلى أن الكتب التي أحرقت كانت ذات طابع دينيّ فقط، ويأتي رأيهم هذا متوافقاً مع رأي ثيسنيروس الذي رأى أن أفضل وسيلة لتسريع عملية تنصير المسلمين هو إحراق كتب الدين الإسلامي، ولا سيما المصاحف وكلّ ما يتعلق بتراثهم؛ وذلك لاجتثاث أي أثر لبقاء الدين في نفوسهم.

ويرجِّح الباحث الرِّواية التي ذكرها (Rafel Gago y Palomo) عن عدد الكتب التي أحرقت، فلا مبالغة في هذا التقدير، والدَّليل على ذلك تلك السَّحابة من الدُّخان الأسود التي غطَّت سماء غرناطة كلِّها، فهي إشارة تقاربنا ممَّا يقوله، ولا ريب في أنَّ تلك السَّحابة لا يسببها إحراق خمسة آلاف كتاب بل أكثر، فهذا الدَّليل المحسوس يقاربنا من العدد الحقيقي لمليوني كتاب أضرمت فيها النَّار في لحظات، وذهبت أعداد كبيرة من الكتب التي لا يمكن تعويضها بأي حالٍ من الأحوال.

ويرى الباحث أن هذا الاختلاف بين المؤرخين في تقدير عدد الكتب يرجع إلى أمرين: أولهما أنَّهم اعتمدوا في تقديراتهم تلك على الرِّواية الشَّفويَّة في تسجيل حقيقة ما جرى في ذلك الحدث دون الاستناد إلى نصوص موثَّقة تعود إلى تلك الحقبة من الزمن، وثانيهما أن أولئك المؤرخين قد بدأوا بوضع تقديراتهم هذه بعد مدة زمنية تزيد عن قرن، أي أنهم لم يعاصروا تلك الأحداث ولم يشاهدوها، ولهذا وقع الخلط والاضطراب في تقدير عدد هذه الكتب، أو حتى إعطاء عدد يقارب النتاج الفكري الذي صدر عن أبناء الأندلس على امتداد حضارة استمرت في العطاء والتَّأليف ردحاً طويلاً من الزَّمن، وهذا ما يصعب حصره في

عدد، لضخامته وكثرته، فإذا لم نكن قادرين على حصر عدد الكتب في مكتبة واحدة من المكتبات الأندلسيَّة، فهل نستطيع حصر النتاج العلمي في ذلك العصر؟

ويمكن النَّظر إلى عمليَّة الإحراق الممنهجة التي قام بها ثيسنيروس من زاوية أخرى، وذلك خلال الوقوف على القلَّة العددية للمخطوطات التي أحرقها كما ذكر المدافعون عنه، فإنَّه من الممكن أن يكون ذلك من باب الدِّعاية الإعلاميَّة، وهذا ما نميل إليه، فقام بإحراق القليل من الكتب غير أنَّه أخفى أعداداً كبيرة، وما من شكٍّ في أنَّه تمَّ إخفاء كثير من الكتب ذات الأهمية للاستفادة من مضامينها علميًّاً، فأخذوها وأودعوها في خزائن مكتباتهم، ونرجِّح – أيضاً– مسألة إخفاء كثير من الكتب التي من الممكن أن تكشف ما كان يتعرّض له المسلمون خلال قمعهم وطردهم وتنصيرهم، ولعلَّ المخطوطات المحفوظة في أديرة الرُّهبان خير شاهدٍ على هذا، إذ أودعت في خزائنها الكثير من المخطوطات التي لا يسمح برؤيتها والاطلاع على مضامينها.

وقد تفاوتت وجهات نظر المؤرِّخين والباحثين حول ما تعرَّض له تراث العرب والمسلمين في تلك الحادثة من محوٍ وطمس، فمنهم من رفض ذلك التَّصرّف رفضاً مطلقاً، ولعلَّ خير من يمثِّل هذا الاتجاه المؤرِّخ الأمريكي (Prescott) الذي علق قائلاً: "إن هذا العمل المحزن لم يقم به همجي جاهل، وإنما حَبْرٌ مثقف، وقد وقع لا في ظلام العصور الوسطى ولكن في فجر القرن السادس عشر وفي قلب أمة مستنيرة، تدين– إلى أعظم حد– بتقدمها إلى خزائن الحكمة العربية ذاتها" (١٠٧) في حين أيدَّ الباحث سيمونيت الخطوة التي قام بها ثيسنيروس وباركها، وكتب مقالاً دافع فيه عن الكاردينال مبينا أنَّ تلك الكتب المحروقة لم تكن ذات قيمة من حيث دراستها، وخلص إلى نتيجة مؤدّاها أنَّ كلّ ما يقال عن ثقافة المسلمين وازدهارهم فيه كثير من الافتراضات والأوهام والخرافات والأساطير والتَّعصُّب، وقد شكّك في عدد تلك المخطوطات زاعماً أنَّه لو توافر للمسلمين مليونا مخطوطة لكانوا أكثر النّاس علماً وثقافة في هذا العالم (١٠٨).

ولم يلبث ريبيرا أن يدفع هذا القول ويردَّه مؤكِّداً أنَّ المسلمين الإسبان كان لديهم ما يزيد على مليوني مخطوطة، وذلك اعتماداً على ما توصّل إليه من خلال بحثه هذا (١٠٩). وقد طرح ريبيرا في الجزء الثاني من مقالته سؤالاً مركزيًّاً وجوهريًّاً حاول من خلاله أن يربط بين القلّة الحاليّة للكتب العربية، وبين ما أشيع من خرافات وأوهام حول المخطوطات الضائعة أو المفقودة، محاولاً بذلك تقديم أسباب مقنعة لضياع تلك المخطوطات، وقد حصر تلك الأسباب في: أوّلها أن العرب لم يستخدموا نوعاً جيّداً من ورق الكتابة، وهذا ما أدّى– في رأيه– إلى تلف الكتب السّريع، إذ لم تَدُمْ طويلاً لكثرة استخدام النَّاس لها وذلك لأنَّ ورقها يَمزّق بسهوله، وثانيها أن كثيراً من المهاجرين من بلاد الأندلس قد قاموا بترحيل

كتبهم مع كثير من الحمّالين الجهلة الذين لا يحسنون المحافظة عليها، الأمر الذي أدى إلى غرقها في البحر، وثالث تلك الأسباب يتّصل بالثاني منها وهو أنّ كثيراً من أبناء الأندلس قد نقلوا كتبهم إلى بلاد المشرق (١١٠) . ويظهر من كلام ريبيرا أن العرب قد أبدوا تقصيراً وتهاوناً في المحافظة على كتبهم.

وبدوره يرى الباحث أنّ هذا الأمر مردود عليه وعمدتنا في ذلك الأخبار التي كنّا قد ذكرناها في مواضع سابقة، والتي جاءت مؤكّدة على عناية الأندلسيين بكتبهم وتراثهم، فقد كانوا يدفعون أموالاً طائلة لقاء الحصول على كتاب فريد، كما أبدوا اهتماماً منقطع النظير بتلك الكتب حفظاً ونسخاً وتجليداً، وذلك لكون الكتاب الوسيلة الوحيدة للمعرفة آنذاك، فهو مستودع ثقافتهم ووعاء فكرهم، وقد كان لإنشاء مصانع الورق في شاطبة– كما أسلفنا– الأثر الكبير في سرعة انتشار الكتب وتداولها بين النَّاس، وهذا ما ساعد على مضاعفة أعدادها آنذاك. ونحن في الوقت نفسه نردّ عليه السُّؤال بالمثل ألم تكن المخطوطات التي وصلت إلينا اليوم مكتوبة على الورق نفسه؟

وقد حاول ريبيرا مرّة أخرى أن يجد تبريراً منطقيًّاً لما قام به ثيسنيروس، نافياً أن يكون دافع الحقد على آداب العرب وفنونهم هو المحرّك الأساسي لما قام به؛ وذلك لأنّه كان واقعاً تحت تأثير وطأة الحماس الشعبي ورغبته في الانتقام من العرب وتراثهم، ولم يكن له – أعني ثيسنيروس– بدٌّ من الاستجابة لمطالب الشعب، وفي ذلك يقول: "وإنِّي لا ألوم مطلقاً تصرّف الكاردينال ثيسنيروس العظيم ولا المفتّشين، وليست لديّ رغبة لأقلِّل من شأن هذا التّصرّف، إذ لم يكن الدّافع له الحقد على الآداب أو الفنون... ولم يكن على أقلّ تقدير احتقاراً للآداب العربيّة التي أمر أن يحفظ منها كتب الفلسفة والطّبّ والتاريخ " (١١١) . ويرى الباحث أنَّ تقديم ريبيرا لمثل هذا التّبرير وإيمانه بذلك العمل الشّائن الذي اقترفه ثيسنيروس بحق الكتب العربيّة، إنّما هو محاولة للرّبط بين ما قام به الأخير وبين ما دأب عليه بعض السلاطين العرب قديماً، وذلك عندما انصاعوا لنداءات الجماهير وأصدروا أوامر تقضي بحرق كتب مجموعة من العلماء المشاهير وعلى رأسهم: ابن حزم، والغزالي، وابن مسرّة.

ويرفض الباحث الاستخلاص الذي توصل إليه ريبيرا في أمر المقارنة بين ما قام به سلاطين العرب وثيسنيروس تجاه هذه المؤلفات المفقودة؛ وذلك لانعدام الربط المنطقي بين دوافع أولئك السلاطين الذين أقدموا على عمليات إحراق محدودة ومدروسة لبعض الكتب بهدف إرضاء العامة والفقهاء كما ذكرنا، أما ذلك العمل الذي قام به ثيسنيروس فلا يمكن مقارنته بدوافع هؤلاء السلاطين؛ إذ كانت غايته إحراقاً منظّماً لمجموعة كبيرة من الكتب والمخطوطات وإتلافها بهدف طمس الآثار العربية وقطع الصلة بين المسلمين وتراثهم، وإنكار دورهم في الحضارة الأندلسية.

ولا بدَّ من التأكيد مرَّة أخرى على التشكيك في مصداقية درجة التثبت من صحة الرواية الشفوية حول حوادث إحراق الكتب، لأنَّه من غير الممكن تقديرها وحصرها برقم معين، نظراً لأنَّ ثقافة الإسبان وحضارتهم لم يتصفا يوماً بالثِّقة، ولهذا نجد فريقين لدى المستشرقين من الإسبان وغيرهم، إذ تبنّى الفريق الأول التاريخ الرَّسمي الذي لفقته الكنيسة الكاثوليكية وأيدها بدعم من سلطة الملوك والنبلاء الإسبان، في حين ظهر فريق آخر مناهض للكنيسة وأفكارها، فأخذ يحاربها بما لديه من قدرة وأدلّة قطعيَّة تثبت مصداق قوله منوِّهاً إلى إمكانية وجود أدلَّة أخرى مسجّلة على مشاهد إحراق الكتب غير أنَّها ليست معلنة، أو ما زالت مخبَّأة هنا أو هناك، أو ثمَّة أدلَّة أخرى لم يتم العثور عليها، والتي من الممكن أن تكشف أسراراً جديدة تفضح أعمال الكنيسة وممارساتها تجاه العرب والمسلمين. وعلى كلٍّ فإنَّ إحراق الكتب الإسلامية من طرف النصارى الإسبان وغيرهم أمر موثَّق تاريخياً بالمستندات والوثائق، وبعض أسباب الحرق بائن ومصرَّح به حتى عدد الكتب المحروقة مشار إليه ولو بالتَّخمين أو بالتَّقدير الرَّمزي الخادم لأغراض الذَّاكر له.

وختاماً لا بدَّ من التأكيد على ضخامة حجم التُّراث الذي أنتجته الحضارة العربية والإسلامية في عصورها الزَّاهرة، إذ صنَّف علماء الأمَّة كمَّاً هائلاً من الكتب التي لا يوقف لها على عدد في مختلف المواضيع، وممَّا يؤكِّد هذا قول القلقشندي: "واعلم أنَّ الكتب المصنَّفة أجلَّ من أن تحصى، وأكثر من أن تحصر في عدد، ولا سيَّما الكتب المؤلَّفة في الملَّة الإسلاميَّة، فإنَّه لم يصنَّف مثلها في ملَّة من الملل، ولا قام بنظيرها أمَّة من الأمم" (١١٢).

فهذا الكلام يثبت أنَّ الكتب الموضوعة في كلِّ فنٍّ لا يمكن إحصاؤها، ولا بدَّ من التأكيد مرَّة أخرى على أنَّ بلاد الأندلس أنجبت عدداً هائلاً من العلماء المشاهير الذين وضعوا المؤلفات في مختلف فنون المعرفة، ولم نظرنا في كتب التّراجم الخاصة بأعلام كلِّ مدينة على حدا لخرجنا بإحصائية كبيرة لأسماء أولئك العلماء ومصنّفاتهم المتعدِّدة، وهذا بدوره يؤكّد على أن تلك البلاد كانت عامرة زاخرة بالكتب التي يكثر تعدادها، والمكتبات التي يطول إيرادها، وممَّا يعزِّز هذا الرأي كثرة أعداد العاملين في خدمة الكتاب من ملوك وأمراء ووزراء وتجَّار وورّاقين ونسّاخ وهواة جمع الكتب بعامَّة وشداة جمع النوادر من المؤلفات المستنسخة بخاصَّة. فضلاً عن الأسواق الخاصَّة ببيع الكتب في مدينتي قرطبة وإشبيلية وغيرهما من المدن، كلُّ ذلك ضاعف من أعداد خزائن الكتب والمكتبات في تلك البلاد.

وممَّا يؤكد على ضياع كم كبير من مصادر التراث الأندلسي ذلك العدد الهائل لقوائم المؤلّفات التي وضعها العلماء الأندلسيون، وقد أثبتت كتب التاريخ والتراجم كثيراً من أسماء الكتب التي لم تصل إلينا، وسكتت عن الإشارة إلى مصيرها وما آل إليه حالها، فانتهت إلى مصير مجهول، أو أنَّها ما زالت مدفونة أو مخفيَّة في مكان ما.

الهوامش:

١. ينظر: يوسف زيدان، التراث المجهول، ص ١١.

٢. علي بن محمد بن العباس، فيلسوف متصوف، كان إماماً في اللغة والنَّحو. من كتبه: (الصداقة والصديق) و(البصائر والذخائر). مات سنة (٤٠٠هـ). ترجمته: الفيروزأبادي، البلغة، ص١٢٧؛ اليماني، إشارة التعيين، ص ٢٢٦.

٣. ينظر: صاعد، طبقات الأمم، ص ١٦٣– ١٦٤؛ ابن عِذَارى، البيان المغرب، ٢/ ٢٩٢– ٢٩٣.

٤. من أهل إسْتِجَة، رحل إلى الشرق والتقى بمشاهير العلماء هناك، كان حافظاً للفقه والقراءات والتفسير. ترجمته: ابن الفرضي، تأريخ علماء الأندلس، ١/ ٣٤٤؛ السيوطي، بغية الوعاة، ٢/ ٩٠.

٥. ينظر: ابن الفرضي، تأريخ علماء الأندلس، ١/ ٣٤٤.

٦. المقري، نفح الطيب، ١/ ٧٦.

٧. المقري، نفح الطيب، ١/ ٤٦٢.

٨. زُهْرُ بن عبد الملك الإياديّ، طبيب وشاعر من أهل إشبيلية. مات سنة (٥٢٥هـ). ترجمته: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٥٩٦؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ٣/ ١٠٤.

٩. محمد بن أحمد بن رشد، قاضي الجماعة بقرطبة، من أعيان المالكية، من كتبه: (المقدمات لأوائل كتاب المدونة) و (البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل). مات سنة (٥٢٠هـ). ترجمته: النباهي، تأريخ قضاة الأندلس، ص٩٨؛ ابن بشكوال، الصلة، ٣/ ٨٣٩.

١٠. أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بن محيو المريني، ينحدر من قبيلة زناتة، يعد من أشهر سلاطين الموحدين، كان رجلاً فاضلاً شجاعاً حريصاً على الجهاد. مات سنة (٦٨٥هـ). ترجمته: الذهبي، تاريخ الإسلام، ٥١/ ٢٥١؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٤/ ٣٥٨– ٣٦١.

١١. ينظر: المقري، نفح الطيب، ١/ ١٥٥.

١٢. صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ١٦٢.

١٣. ينظر: ابن الأبار، الحلة السيراء، ص ١١٧؛ المقري، نفح الطيب، ١/ ٣٨٦.

١٤. ابن بسام، الذخيرة، ٣/ ٢١؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٣/ ١٥٥– ١٥٦.

١٥. ينظر: المقري، نفح الطيب، ٣/ ٣٨٠.

١٦. ينظر: ابن باديس، كتاب التبيان، ص ١٠٤.

١٧. عبد الله بن حيان بن فرحون. من أهل بلنسية. من كبار الفقهاء. مات سنة (٤٨٧هـ) . ترجمته: الضبي، بغية الملتمس، ٢/ ٤٤٥؛ ابن بشكوال، الصلة، ٢/ ٤٣٨.

١٨. ينظر: الضبي، بغية الملتمس، ٢/ ٤٤٥.

١٩. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣/ ٣٠٩. الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢/ ٥٥٦.

٢٠. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٩٧.

٢١. المقري، نفح الطيب، ١/ ٢٢٠.

٢٢. المقري، نفح الطيب، ١/ ٥٤٠.

٢٣. ينظر: زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٩٩. نقله عن الألمانية فاروق بيضون وآخر.

٢٤. William Prescott, History of the reign Ferdinand and Isabella the Catholic ., vol. 1, p. 301

٢٥. ينظر: محمد عجاج الخطيب، لمحات في المكتبة والبحث والمصادر، ص ٣١.

٢٦. ريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس، ص ١٢٨.

٢٧. ينظر: ريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس، الصفحات ١٥٥– ١٩٣.

٢٨. ينحدر من أصل رومي، كان رجلاً تقيّاً صالحاً شجاعاً محبَّاً للجهاد والغزو، عارفاً بالسياسة، مكرماً للعلماء. من آثاره بناء سور مدينة غرناطة. مات مقتولاً في عقر داره سنة (٧٦٠هـ) . ترجمته: ابن الخطيب، الإحاطة، ١/ ٥٠٧– ٥١٢.

٢٩. ابن الخطيب، الإحاطة، ١/ ٥٠٨– ٥٠٩.

٣٠. Conde, José Antonio, Historia de la dominación de los árabes en Es-paña, vol. 1, p. 487.

٣١. William Prescott, History of the reign Ferdinand and Isabella the Catholic, vol. 1, p. 301.

٣٢. ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ ٢٤٠– ٢٤١.

٣٣. ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ ٢٤٩.

٣٤. ينظر: عبد العزيز الأهواني، كتب برامج العلماء في الأندلس، مجلة معهد المخطوطات، المجلد الأول، الجزء الأول، الصفحات: ٩١، ٩٦.

٣٥. ينظر: المقري، نفح الطيب، ٣/ ١٥٦– ١٨٧.

٣٦. الضبي، بغية الملتمس، ٢/ ٧١٩.

٣٧. ابن الأبار، التكملة، ١/ ١٠٣.

٣٨. ابن الأبار، التكملة، ٣/ ٢٥٢.

٣٩. ينظر: ابن بشكوال، الصلة، ٢/ ٤٣٨.

٤٠. ابن الخطيب، الإحاطة، ٣/ ٦٥.

٤١. ينظر: ابن بسام، الذخيرة، ٢/ ٤٧٨؛ المقري، نفح الطيب، ٣/ ١٩٤.

٤٢. ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٦/ ١٨٤؛ أحمد بنين، معجم مصطلحات المخطوط العربي، ص٣١٥.

٤٣. ينظر: أحمد بنين، معجم مصطلحات المخطوط العربي، ص ٢٩٨.

٤٤. ينظر: ابن الأبار، الحلة السيراء، ص ١١٨.

٤٥. ينظر: ابن الأبار، التكملة، ٢/ ٥٠.

٤٦. ينظر: أحمد بنين، معجم مصطلحات المخطوط العربي، ص ٢٠٠.

٤٧. صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ١٦٤.

٤٨. أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد، عالم بالتفسير والحديث. مات في قرطبة في بداية الفتنة البربرية سنة (٤٠٢هـ) . ترجمته: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ٣/ ١٧٥؛ ابن بشكوال، الصلة، ٢/ ٤٦٦.

٤٩. أبو عبد الله محمد بن سعيد الغساني، عالم ثقة فاضل من أهل مالقة. كان محدِّثاً راوية نسَّابة بصيراً بالخطوط مميِّزاً لها حسن الخطِّ. ترجمته: ابن خميس، أدباء مالقة، ص ١٠٧؛ ابن الأبَّار، التكملة، ٢/ ٤٤؛ المراكشي، الذيل والتكملة، ٦/ ٢١٢– ٢١٣.

٥٠. ينظر: ابن خميس، أدباء مالقة، ص ١٠٨.

٥١. ينظر: ابن الأبار، التكملة، ٢/ ٤٤.

٥٢. هو عبد الله بن إبراهيم الكندي، مؤرخ أندلسي أصله من واد الحجارة، من كتبه: (المسهب في أخبار أهل المغرب) و (الحديقة في البديع) . مات سنة (٥٨٤هـ) . ترجمته: ابن الخطيب، الإحاطة، ٣/ ٤٣٢؛ الزركلي، الأعلام، ٤/ ٦٣؛ كحالة، معجم المؤلفين، ٦/ ١٨.

٥٣. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١/ ٧١.

٥٤. ينظر: المقري، نفح الطيب، ١/ ٧٥.

٥٥. ريبيرا، المكتبات، مجلة معهد المخطوطات، المجلد الرابع والخامس، الجزء الأول، ص ٧٢.

٥٦. ابن بشكوال، الصلة، ٢/ ٥٢٨– ٥٢٩.

٥٧. العقوة: الساحة حول الدار، القعب: القدح الواسع. ابن منظور، لسان العرب، مادة (عقا، قعب) .

٥٨. أبو سليمان ربيع بن عبد الرحمن الأشعري، آخر قضاة قرطبة، كان رجلاً صالحا عادلاً في أحكامه. مات بإشبيلية سنة (٦٣٣هـ) . ترجمته: النباهي، تأريخ قضاة الأندلس، ص ١١٨؛ ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ١/ ٢٦٠.

٥٩. النباهي، تأريخ قضاة الأندلس، ص١١٨.

٦٠. ابن الخطيب، الإحاطة، ١/ ١٨٦.

٦١. أبو عبد الملك مروان بن عبد الملك، المعروف بابن الفَخَّار. أخذ العلم عن بقي بن مخلد، ثم رحل إلى المشرق والتقى بكبار العلماء هناك ثم عاد إلى الأندلس. ترجمته: ابن الفرضي، تأريخ علماء الأندلس، ٢/ ١٥٨.

٦٢. المراكشي، الذيل والتكملة، (القسم الثاني) ، ٥/ ٦٨٢.

٦٣. ينظر: ابن بشكوال، الصلة، ٢/ ٥٨٣.

٦٤. أبو بكر محمد بن غلبون، من أهل مرسية، كان أديباً جليلاً حسن الخطّ والكتابة. مات سنة (٦٥٠هـ) . ترجمته: ابن الأبار، التكملة، ٢/ ١٥٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٤٧/ ٤٥٢.

٦٥. ابن الأبار، التكملة، ٢/ ١٥٣.

٦٦. ابن الخطيب، الإحاطة، ١/ ١٩١.

٦٧. ابن الأبار، التكملة، ٢/ ٢٨٨.

٦٨. ابن الأبار، التكملة، ٢/ ٣٠٤.

٦٩. المقري، نفح الطيب، ١/ ٢٢١.

٧٠. أبو بكر محمد بن يبقى، المعروف بابن زَرْب، من كبار القضاة والخطباء بالأندلس، كان فقيهاً فاضلاً، له كتاب في الفقه سمَّاه "الخصال" مات سنة (٣٨١هـ) . ترجمته: الحميدي، جذوة المقتبس، ١/ ١٦٢؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٦/ ٤١١.

٧١. محمد بن عبد الله بن مسرّة، فيلسوف أندلسي، نشأ محبّاً للدراسات العقلية، أشاع عنه الناس أنَّه يشيع تعاليم إلحادية تتنافى مع تعاليم الإسلام، وقد ألّف كتباً ضاع معظمها. مات سنة (٣١٩هـ) ترجمته: ابن الفرضي، تأريخ علماء الأندلس، ١/ ١٥٣؛ الحميدي، جذوة المقتبس، ١/ ١٠٩.

٧٢. النباهي، تأريخ قضاة الأندلس، ص٧٨.

٧٣. محمد بن عبد الله المصموديّ، قاض أندلسي، له علم بالأدب، من أهل قرطبة، كان الخليفة ينتدبه في السفارات إلى كبار الأمراء، ويرسله لترتيب المغازي. مات سنة (٣٣٩هـ) . ترجمته: الزركلي، الأعلام، ٦/ ٢٢٤.

٧٤. ابن الفرضي، تأريخ علماء الأندلس، ١/ ١٩٩.

٧٥. ابن بسام، الذخيرة، ١/ ١٤٠؛ المقري، نفح الطيب، ٢/ ٨٢.

٧٦. ينظر: ابن حزم، الرسائل، مقدمة المحقق، ١/ ٨– ١٥.

٧٧. أبو عبد الله محمد بن عبد الله، أديب ومؤرّخ من أهل بلنسية، رحل عنها إلى تونس عندما استولى عليها النصارى، فأكرمه ملك تونس، غير أنَّ بعض أعدائه وشى به عند الملك، وقد أمر الأخير بقتله سنة (٦٥٨هـ) . ترجمته: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٣/ ٣٣٧؛ المقري؛ نفح الطيب، ٢/ ٥٨٩.

٧٨. ينظر: المقري، نفح الطيب، ٢/ ٥٩١.

٧٩. ابن الفرضي، تأريخ علماء الأندلس، ٢/ ٢٤٢.

٨٠. ينظر: صاعد، طبقات الأمم، ص ١٨٣؛ ابن بشكوال، الصلة، ٢/ ٥٠٦.

٨١. هو الوزير الكاتب أبو جعفر أحمد بن عباس، كان وزيراً لزهير الصقلبي ملك ألمرية. ترجمته: ابن سعيد، المغرب، ٢/ ٢٠٥؛ المقري، نفح الطيب، ٣/ ٥٣٥.

٨٢. ابن بسام، الذخيرة، ١/ ٨٠٥. وانظر: المقري، نفح الطيب، ٣/ ٥٣٥.

٨٣. أبو عمرو عثمان بن سعيد، من أهل قرطبة، من كبار المقرئين في عصره، رحل إلى المشرق فزار مكة ثم انتقل إلى مصر، ولما عاد إلى الأندلس سكن مدينة دانية. مات سنة (٤٤٠هـ) . ترجمته: ابن بشكوال، الصلة، ١/ ١٢٩؛ الحميدي، جذوة المقتبس، ١/ ٨٢.

٨٤. الضبي، بغية الملتمس، ٢/ ٥٣٨.

٨٥. محمد بن يحيى الغافقي من أهل قرطبة، كان أديباً كاتباً جماعاً لدفاتر العلم منذ أن كان صبيًّاً. مات سنة (٤٣٣هـ) . ترجمته: ابن الأبار، التكملة، ١/ ٣١٢.

٨٦. ابن الأبار، التَّكملة، ١/ ٣١٢.

٨٧. أبو القاسم أحمد بن أبان بن سيد، إمام في اللغة العربية، كان صاحب الشرطة في قرطبة، أخذ عن القالي كتاب النوادر. مات سنة (٣٨٢هـ) . ترجمته: الحميدي، جذوة المقتبس، ١/ ١٨٨؛ ابن بشكوال، الصلة، ١/ ٣٤.

٨٨. الضبي، بغية الملتمس، ٢/ ٧١٩؛ المقري، نفح الطيب، ٣/ ١٧٢.

٨٩. المقري، نفح الطيب، ٢/ ٥– ٦.

٩٠. ينظر: الضبي، بغية الملتمس، ٢/ ٦٢٧.

٩١. ابن بسام، الذخيرة، ٣/ ٦١٧.

٩٢. اليماني، إشارة التعيين، ص ١٠٥.

٩٣. ينظر: الكتاني، نظام الحكومة النبويَّة، ٢/ ٢٩٧.

٩٤. ينظر: الكتاني، نظام الحكومة النبويَّة، ٢/ ٢٩٧.

٩٥. ينظر: ريبيرا، المكتبات، مجلة معهد المخطوطات، المجلد الخامس، الجزء الأول، ص١٠٠.

٩٦. ينظر: ريبيرا، المكتبات، مجلة معهد المخطوطات، المجلد الرابع، الجزء الأول، ص ٧٧– ٧٨.

٩٧. ينظر: خوليان ريبيرا، المكتبات، مجلة معهد المخطوطات، المجلد الرابع، الجزء الأول، ص٧٨.

٩٨. ينظر: خوليان ريبيرا، المكتبات، مجلة معهد المخطوطات، المجلد الخامس، الجزء الأول، ص ١٠٠، المجلد الرابع، ٧٨.

٩٩. Robles, Rebelión de Moriscos, p. 104.

١٠٠. زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٥٣٥.

١٠١. Francisco Bermúdez de Pedraza. Historia Eclesiástica de Granada, p. 195r.

١٠٢. Simonet, Francisco Javier. El Cardinal Ximenez de Cisneros y los manuscritos arábigo- granadinos, p. 7.

١٠٣. Flechier, Esprit obispo de Nimes. Historia del Señor Cardinal D. Fran-.cisco Ximenez de Cisneros, p. 78- 79

١٠٤. Conde, Josef Antonio. Descripción de España, p. iv, nota 1.

١٠٥. William Prescott, History of the reign Ferdinand and Isabella the Cath-.olic , vol. II, p. 413

١٠٦. Rafaael Gago y Palomo. Sección Leteraria. La Lealtad, p. 18- 19,año .xiv, no 3729, Miercoles 22 de Julio de 1885

١٠٧. William Prescott, History of the reign Ferdinand and Isabella the Cath-.olic , vol. II, p. 414

١٠٨. ينظر: ريبيرا، المكتبات، مجلة معهد المخطوطات، المجلد الرابع، الجزء الأول، ص ٧٨.

١٠٩. ينظر: ريبيرا، المكتبات، مجلة معهد المخطوطات، المجلد الرابع، الجزء الأول، ص ٧٩.

١١٠. ينظر: ريبيرا، المكتبات، مجلة معهد المخطوطات، المجلد الخامس، الجزء الأول، ص ٩١.

١١١. ريبيرا، المكتبات، مجلة معهد المخطوطات، المجلد الخامس، الجزء الأول، ص ١٠١.

١١٢. القلقشندي، صبح الأعشى، ١/ ٥٣٨.

المصادر والمراجع:

أولاً ـ المراجع العربية:

١. ابن الأبَّار، محمد بن عبد الله (ت٦٥٨هـ) ،

أ. التَّكملة لكتاب الصِّلة، تحقيق عبد السَّلام الهرَّاس، لبنان: دار الفكر، ١٣١٥/ ١٩٩٥.

ب. الحُلَّةُ السِّيَرَاء في تراجم الشعراء من أعيان الأندلس والمغرب من المائة الأولى للهجرة إلى المائة السابعة، وضع حواشيه علي محمود، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٩/ ٢٠٠٨.

٢. ابن باديس، عبد الله بن بُلُكِّين، كتاب التبيان، تحقيق أمين توفيق الطيبي، الرباط: مطابع منشورات عكاظ، ١٩٩٥.

٣. ابن بسَّام، عليّ بن بسَّام، الذَّخِيْرَة في مَحَاسِن أَهْل الجَزِيْرَة، تحقيق إحسان عبَّاس، ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٠.

٤. ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك، (٥٧٨هـ) ، الصِّلَة في تَارِيْخ عُلَمَاء الأَنْدَلُس، قدَّم له صلاح الدين الهوَّاري، ط١، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٣/ ٢٠٠٣.

٥. ابن حزم، علي بن أحمد (ت٤٥٦هـ) ، الرَّسائل، تحقيق إحسان عباس، ط٢، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، ١٩٨٧.

٦. ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله (٧٧٦هـ) ، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط١، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٩٥/ ١٩٧٥.

٧. ابن خلكان، محمد بن محمد (ت٦٨١هـ) ، وَفَيَات الأَعْيَان وأَنْبَاء أَبْنَاء الزَّمَان، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٩٤.

٨. ابن خميس، محمد بن محمد (ت٦٣٩هـ) ، أدباء مالقة، تحقيق صلاح جرار، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩/ ١٩٩٩.

٩. ابن سعيد، علي بن موسى (ت٦٨٥هـ) ، المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب، تحقيق شوقي ضيف، ط٣، القاهرة: دار المعارف، (د. ت) ، [ذخائر العرب ١٠].

١٠. ابن عِذَارى المراكشي (ت٧١٢هـ) ، البَيَان المُغْرِب في أَخْبَار الأَنْدَلُس والمَغْرِب، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩.

١١. ابن الفَرَضِيّ، عبد الله بن محمد (ت٤٠٣هـ) ، تَأْرِيْخ عُلَمَاء الأَنْدَلُس، تحقيق بشار معروف، ط١، تونس: دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٩/ ٢٠٠٨.

١٢. ابن منظور، محمد بن مكرم (ت٧١١هـ) ، لِسَان العَرَب، بيروت: دار صادر، ١٣٨٨/ ١٩٦٨.

١٣. أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد (ت٤١٤هـ) ، المقابسات، تحقيق حسن السّندوبي، ط٢، الكويت: دار سعاد الصباح، ١٩٩٢.

١٤. الإدريسي، محمد بن محمد (ت٥٦٠هـ) ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط١، بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٩/ ١٩٨٩.

١٥. الأهواني، عبد العزيز، كتب برامج العلماء في الأندلس، مجلة معهد المخطوطات العربيَّة، المجلد الخامس، الجزء الأول، ١٣٧٤/ ١٩٥٥.

١٦. بنين، أحمد شوقي، معجم مصطلحات المخطوط العربي (قاموس كوديكولوجي) ، ط٣، الرباط: الخزانة الحسنية، ٢٠٠٥.

١٧. الحَمَوِيّ، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، بيروت: دار الفكر، (د. ت) .

١٨. الحُمَيْدِي، محمد بن فتوح (ت٤٨٨هـ) ، جُذْوَة المُقْتَبِس في تَارِيْخ عُلَمَاء الأَنْدَلُس، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط٢، القاهرة، بيروت: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ١٤١٠/ ١٩٨٩.

١٩. الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط٢، بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨٠.

٢٠. الخطيب، محمد عجاج، لمحات في المكتبة والبحث والمصادر، بيروت: (د. ن) ، ١٣٩١/ ١٩٧١.

٢١. الذَّهَبِيّ، محمد بن أحمد (ت٧٤٨هـ) ،

أ. تَارِيْخ الإِسْلام ووَفَيَات المَشَاهِيْر والأَعْلام، تحقيق بشَّار معروف، ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣.

ب. تَذْكِرَة الحُفَّاظ، تحقيق زكريا عميرات، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩/ ١٩٩٨.

ت. سِيَر أَعْلام النُّبَلاء، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩/ ١٩٩٨.

٢٢. ريبيرا، خوليان،

أ. التربية الإسلامية في الأندلس أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، ط٢، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٤.

ب. المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية، ترجمة جمال محرز، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الخامس، الجزء الأول، ١٣٧٨/ ١٩٥٩.

٢٣. الزركلي، خير الدين (ت ١٣٩٦هـ) ، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط٣، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٦.

٢٤. زيدان، يوسف، تراثنا المجهول " إطلالة على عالم المخطوطات "، ط٢، القاهرة: دار الأمين، ١٩٩٧.

٢٥. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ) ، بُغْيَة الوُعَاة في طَبَقَات اللُّغَوِيِّيْن والنُّحَاة، تحقيق محمد أبو الفضل، صيدا: المكتبة العصرية، (د. ت) .

٢٦. صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد (ت٤٦٢) ، طبقات الأمم، تحقيق حياة بو علوان، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٥.

٢٧. الضَّبِّي، أحمد بن يحيى (ت٥٩٩هـ) ، بُغْيَة المُلْتَمِس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط١، القاهرة، بيروت: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ١٤١٠/ ١٩٨٩.

٢٨. الفيروزأبادي، محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ) ، البُلْغَة في تَارِيْخ أَئِمَّة اللُّغَة، ضبطه بركات هبُّود، ط١، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٢/ ٢٠٠١.

٢٩. القَلْقَشَنْدِيّ، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق يوسف علي طويل، ط١، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٧.

٣٠. الكتاني، محمد عبد الحي (ت١٣٨٢هـ) ، نظام الحكومة النبوية المسمَّى بـ " التَّراتيب الإدارية "، تحقيق عبد الله الخالدي، ط٢، بيروت: دار الأرقم، ١٤١٦/ ١٩٩٦.

٣١. كحالة، عمر رضا، مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن " تَرَاجم مُصَنِّفِي الكُتُب العَرَبِيَّة "، بيروت: مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، (د. ت) .

٣٢. المقدسي، محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع مقدمته وفهارسه محمد مخزوم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨/ ١٩٨٧.

٣٣. المَقَّرِيّ، أحمد بن محمد (ت١٠٤١هـ) ، نَفْح الطِّيْب من غُصْن الأَنْدَلُس الرَّطِيْب، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٣٨٨/ ١٩٦٨.

٣٤. النُّبَاهيّ، علي بن عبد الله، تَأْرِيْخ قُضَاة الأَنْدَلُس المُسَمَّى بـ " المَرْقَبَة العُلْيَا فِيْمَنْ يَسْتَحِقُّ القَضَاءَ وَالفُتْيَا"، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، ط٥، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٣/ ١٩٨٣.

٣٥. هونكه، زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوروبا "، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وآخر، ط ٨، بيروت: دار الجيل، ١٤١٣/ ١٩٩٣.

٣٦. اليماني، عبد الباقي (ت٧٤٣هـ) ، إِشَارَة التَّعْيِين في تَرَاجِم النُّحَاة واللُّغَوِيِّين، تحقيق عبد المجيد دياب، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، (د. ت) .

ثانياً ـ المراجع الأجنبية:

1. *Bermúdez de Pedraza, Francisco. Historia Eclesiastica de Granada, Granada, (ed. facs.) Universidad de Granada, 1989.*
2. *Conde, José Antonio. Historia de la dominación de los árabes en Esapña. Madrid: (s. n) , 1820- 1821.*
3. *Flechier, Esprit Obispo de Nimes. Historia del Señor Cardenal D. Francisco Ximenez de Cisneros,Traducida por Miguel Faranco de Villalva, Madrid: Imprenta de Pedro Marín, 1773.*
4. *Gago Palomo, Rafael. Sección Literaria. La Lealtad, p. 18- 19,año xiv, no 3729, Miércoles 22 de Julio de 1885.*
5. *Prescott, William H. History of the reign Ferdinand and Isabella the Catholic. Philadelphia, j. B. Lippincott & Co, 1864.*
6. *Simonet, Francisco Javier. El Cardenal Ximenez de Cisneros y Los Manuscritos Arábigo- Granadinos,Granada: Imprenta de La lealtad á Cargo de. J. G. Garrido, 1885.*